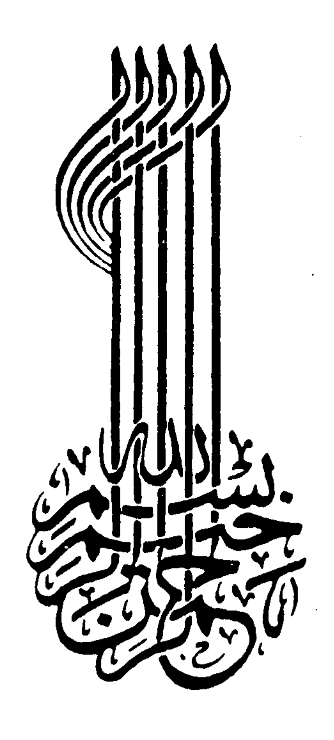

بسم الله الرحمن الرحيم



ملف ثقافي إبداعي يصدر عن نادي أبها الأدبي
العدد الثامن عشر . ربيع الثاني ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م

نادي أبها الأدبي - أبها - ص .ب ٤٧٨ - تليفون : ٧٢٢٤٤٢١٠. / ٧٢٢٦٣٥٩٧.
فاكس : ٧٢٢٦٢١٦٥. - المملكة العربية السعودية
PUBLISHEDBY ABHA LITERARY CLUB P.O Box : 478 Tel : 072244210 \ 072263597
Fax : 072262165 ABHA . SAUDI ARABIA

رقم الإيداع: ١٤/٠٠٥٣
ردمـــك : ١٣١٩ - ٣٥٠ ISSN

محتويات العدد الثامن عشر من ملف النادي بيادر

إشـــــارات

المشرف العام

* مرّت هذه المجلة الفصلية بمراحل متعددة منذ قيامها .. فقد كان العدد الأول بما احتواه من مادة سيطرت عليها الجدة والتحديث مثار إعجاب الشباب والملاحق الأدبية المناصرة للتوجه الحداثي كما كان في المقابل موضوع هجوم وانتقاد الطرف الآخر المتشبث بأهداب الماضي والمناصر للمنحى التقليدي !

* حاولت إدارة النادي في العددين الثاني والثالث مسك العصا من الوسط لإرضاء كل الأذواق فما حققت ما كانت تصبو إليه من نجاح بل كانت مستهدفة من الجانبين اللذين يصرّ كل منهما على أن يكون المسيطر الوحيد في الساحة !

* وفي مرحلة لاحقة أسندت الإدارة مهمة تحرير المجلة إلى أساتذة متخصصين من منسوبي النادي وأكثرهم أعضاء في هيئة التدريس الجامعي فصارت شبه أكاديمية محكّمة وقابلها الشباب بالنقد من هذا الباب لأنها لاتُحقق طموحاتهم كما يريدون !

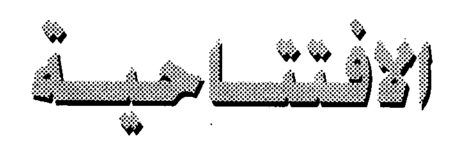
* وقبل سنة أعاد النادي النظر في تشكيل لجنة التحرير محاولاً الرجوع إلى التوفيقية وتقريب وجهات النظر فكان وضعها الحالي وسطي الشكل والمضمون إلي حدّ ما ..

* وبطبيعة الحال فإن كل هذه الجهود لن ترضي كل الناس .. ولكنها محاولة للوصول إلى نقطة مقاربة لرغبات الأغلبية وليس الجميع لأن الإجماع مستحيل كما هي سنة الله في خلقه !

* وفي النتيجة .. هذه البيادر آلية يحرص النادي علي ديمومتها وتطويرها والوصول بها يوماً إلى شهرية لخدمة الثقافة والإبداع .. ولكن هذا الأمل يظل حلماً ما لم تتظافر كل الجهود من أجل تحقيقه .. وما لم تتدافع الأقلام من كل أصحاب المواهب رجالاً ونساءً .. كباراً وصغاراً من أجل إثرائه بالجديد المفيد ..

* أما إذا لم تتوفر الاستجابة الجادة للدعوات المتكررة والصادقة من قبلنا - لاسمح الله - فسنكون - عندئذ - في حلّ من التعلق بأوهام السراب وسنصرف النفقات والجهود لمناشط أخرى يحتاجها النادي ورواده اليوميين اللصيقين به ..

والله من وراء القصد .


الافتتاحية

« الافتتاحية »

رئيس التحرير
د / غيثان بن علي بن جريس

الحمد الله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الامين ، وبعد . فكما عودنا القراء الأفاضل في كل افتتاحية من هذا الملف نطرح قضية معينة ، وقضيتنا في هذا العدد (الثامن عشر) وقفة مع (أدب الطفل) وخاصة الطفل المسلم ، وقبل أن ننوه إلى بعض الجوانب لوضع أدب الأطفال في تاريخنا المعاصر ، فإنه من الأجدر أن نشير بشكل موجز إلى اهتمام الدين الإسلامي بالأطفال ، فلقد اهتم الإسلام بالطفولة اهتماماً واسعاً، بل لم يسعد الأطفال في العالم اليوم كما سعدوا في ظل الحضارة الإسلامية، على مر التاريخ الإسلامي ، لأن عناية الإسلام بالنشأة الأولى تفوق كل عناية، باعتبارها حجر الزاوية في بناء المجتمع المسلم . وفي تاريخنا الإسلامي ارتبطت وضعية الطفل بمدى التطبيق العملي لتعاليم الآسلام ، فكلما ساد العدل الإجتماعي، واطمأن المسلمون إلى أنفسهم كان أطفالهم بمنجاة من عوامل الضياع وأسباب الفساد(١) .

وإذا كانت الأمم المتحدة التي تمثل المجتمع العالمي اليوم قد أعلنت عن حقوق الطفل في ١٩٥٩/١١/٢٠م فإن الإسلام قد رعاه وأعلن حقوقه قبل أربعة عشر قرناً ، ونظر إليه نظرة شاملة عميقة متكاملة وتجاوز في ذلك كل ما ادعته المدنيات المعاصرة والفلسفات الحاضرة .

ولم تكن عناية الإسلام بالطفولة عن طريق التشريعات والقوانين والنصوص فقط ـ كما تفعل التربية والحضارات المعاصرة ـ بل كانت تطبيقات وممارسات واهتمامات بدأها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وسار بعده السلف الصالح من الصحابة (رضوان الله عليهم) ومن التابعين ، ومن علماء الأمة الإسلامية وأدبائها ومفكريها .

ولقد ألفّت في موضوع الطفولة كتب إسلامية كثيرة، ويكفي أن نشير إلى واحد منها يجمع أحكام الطفولة في الفقه الإسلامي وهو (جامع أحكام الصغار) لمحمد بن محمود الأسروشي المتوفي ٦٣٢هـ والذي نشر محققاً في أربعة مجلدات كبار (٢) .

كما أن هناك الكثير من المصادر التي تتحدث عن الأطفال في تراثنا العربي الإسلامي وبها مجموعات كثيرة من الفكاهة والحكايات والقصص ـ إضافة للأشعار ـ التي يمكن إدراجها ضمن أدب الطفل شريطة أن تخضعها لظروف عصرها وطبيعته

وقيمته وعاداته ، وأذكر في هذا المجال بعض هذه المصادر ، مثل :ـ (البيان والتبيين) للجاحظ و (عيون الأخبار) لإبن قتيبة ، و(جمهرة نسب قريش) للزبير بن بكار ، و (بلاغات النساء) لأحمد أبن أبي طاهر و(الكامل) للمبرد و(مجالس ثعلب) لثعلب ـ أحمد بن يحيي و(المحاسن والمساوىء) للبيهقي ، و(العقد الفريد) لإبن عبد ربه، و(الأمالي) لإسماعيل بن القاسم القالي، و(مجمع الأمثال) للميداني، و(أبناء نجباء الأبناء) لمحمد ظفر الصقلي، و(المستطرف في كل فن مستظرف) للابشيهى(٣) .

ومن المؤسف حقاً أن أدب الطفل عند المسلمين اليوم يكاد يكون شبه معدوم، وإن وجدت دراسات قليلة حوله فإن بعضها يعتريها الكثير من السلبيات والمغالطات التي لاتتوافق مع المجتمع الإسلامي المتمسك بكتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم). ولأن الأدب في هذا العصر وكل العصور ، من أهم الوسائل المؤثرة في مسيرة الأجيال ، وتربية النشيء ، وإدخال الأفكار ، وتشكيل الوجدان . فقد استفاد من هذه الوسيلة أصحاب المعتقدات الوضعية والفلسفات المادية في الشرق والغرب حتى نقلوا عن طريقه إلى شعوب الأمة الإسلامية كل آرائهم وفلسفاتهم، ووصلوا إلى نفوس الناشئة، فأدخلوا فيها كل ما يريدون من معتقدات ومذاهب عن طريق الأقصوصة، والرواية ، والمسرحية ، والشعر ، والمقالة ، والنقد ، وباسم الفن ، والمذاهب الفنية والأدبية . وتقصير المسلمين في هذا الشأن واضح وكبير حتى غدوا عالة على غيرهم، يأخذون ويقلدون ، ويتأثرون ويتابعون بمعرفة وغير معرفة .

وأدب الطفل مهم جداً في هذا المجال ، لأنه يؤثر بطريقة مباشرة وغير مباشرة في عقل الطفل ووجدانه ، ومثل هذا التأثير الذي يستجيب له الطفل بسهولة يحقق أهدافه المبتغاة منه ، ولا سيما أن عقل الطفل في هذه المرحلة خامة لينة يمكنه تشكيلها بالصورة التي نريد ، ولأن نفسية الطفل ـ أيضاً ـ كالصفحة البيضاء يمكن أن نخط عليها ما نشاء. والطفل في مراحله الأولى يقنع بكل جواب ، ويصدق كل ما يسمع من والديه وبيئته ، كما إنه يقلد ما يراه من حركات وتصرفات ، ولهذا كانت مسئولية الوالدين أولاً، والمربين ـ ومن بينهم الأدباء ـ كبيرة تجاه الطفل .

ومن ينظر في كثير من الكتب العربية الحديثة التي بحثت في موضوع أدب الطفل يجد أن أكثر مؤلفيها تجاهلوا ما في تراثنا الإسلامي والعربي مما له علاقة بأدب الطفل المسلم ،، بينما توقف كثيرون ممن كتبوا عند جذور أدب الأطفال عند الغربيين ،

والشرقيين على حد سواء . ولم أر إلا النادر من الكتاب قد توقف عند شيء من إنتاج الغرب بالتقويم الموضوعي، والنقد العلمي البناء، ليعرف هل يصلح ما كتبوه لأطفالنا أو لا يصلح ؟ وهل يتناسب مع فطرة الطفل وعقله ومدركاته أو لا يتناسب ؟ ولذلك لانجد إلا إشارات عاجلة إلى مافي تراثنا من هذا الأدب، وهذه الإشارات لا تتعدى الوقوف عند « ألف ليلة وليلة » وبعض القصص الأخرى، التي كانت لها غايات لايجهلها عاقل. لذلك لم يجرؤ كتابها ـ الباطنيون ـ على الظهور والوضوح والإعلان عن أنفسهم، بل راحوا يروجون مثل هذه الكتابات ويدسون الأخبار ، وينسجون من خيالاتهم خيوط القصص والمؤامرات لتشويه الإسلام وأهله . لقد رأى الغربيون في هذا بغيتهم، لأن الذين صنعوا هذا من حلفائهم من اليهود ومن شايعهم وسار وراءهم بعلم أو بغير علم، ولذلك احتفوا بمثل هذه الكتب، وألفوا حولها المؤلفات وعملوا الدراسات، ومنحوا الألقاب العلمية لأصحابها، وكأنها التراث الأسمي للمسلمين ، وهذا مادفع أكثر الباحثين لذكرها كأهم مصدر عربي لأدب الأطفال (٤).

ولهذا يجب أن ندرك نحن المسلمين أننا وقعنا في تقصير كبير إزاء تراثنا وأدبنا، وإلى الأحكام المسبقة التي هيمنت على كثير من المؤلفات والدراسات الخاصة بأدب الأطفال نتيجة التقليد، أو الانخراط في الولاءات الحزبية والفكرية الوافدة . وهذا التقصير جعلنا نكسل عن النظر في كنوز تراثنا الثمين وآثاره الكثيرة التي ضمت ما يصلح لأدب الطفل ، لجمعه ونشره، أو لترتيبه وإعادة صياغته من جديد ليتلاءم مع هذا العصر ، وليقدم بالصورة المناسبة لأطفالنا .

وما يجب على الكتاب والأدباء المختصين في كتابة أدب الأطفال بالعالم الإسلامي أن يراعوا أهداف أدب الطفل المسلم من حيث الجانب العقائدي المبني على كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، وكذلك الأهداف التربوية والتعليمية والجمالية المنطلقة من شريعة الإسلام الخالية من الشوائب .

وهناك مواضيع كثيرة في أدب الطفل المسلم ، ولكن بعض الموضوعات التي نراها أكثر أهمية من غيرها في أدب الأطفال ، نجملها في عدة عناصر على النحو التالي :

١ ـ الموضوعات التوجيهية التربوية :

وتضم الجوانب التي تدور حول العقيدة ، والقرآن الكريم وتفسيره ، والحديث الشريف وشرحه ، والآداب الإسلامية ، والعلاقات الإجتماعية ، وبعض الأمور المتعلقة

بالسيرة والتاريخ . والأدب الذي نود أن يبدعه الأدباء في هذا الجانب ، هو كتابة موضوعات يوضح فيها بناء العقيدة وتأسيسها ، وكذلك تعميق مفهوم الإيمان المرتبط بالوعي في نفوس الأطفال ، وذلك عن طريق سور القرآن الكريم وتفسيرها ، أو عن طريق الحديث الشريف ، أو السيرة والتاريخ وغيرها .

٢ ـ الموضوعات المتعلقة بالعلوم التطبيقية :

لقد وجه القرآن الكريم أنظار الإنسان إلى ما حوله من كائنات ومخلوقات لأنها تدل على قدرته وعظمته سبحانه وتعالى ، ولأن استخلاف الإنسان في الأرض يقتضي أن يتعرف إلى ما يحيط به ، وما يتعلق بحياته، وما يحمله من عوالم لكي يتسنى له تسخير ما لديه للقيام بمهمة الاستخلاف . قال تعالى :ـ ﴿ **أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج** ﴾[٥] . وقال تعالى:﴿ **وفي أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ [٦].

والأديب يستطيع أن يستفيد من موضوعات العلوم التطبيقية المختلفة، وعلوم الحياة، وأن يعرض صوراً وتجارب ورحلات واستطلاعات واكتشافات بطريقة تناسب مراحل الطفولة، وهناك أمثلة على ذلك مما نشر تحت عنوان :ـ « من أقاصيص الطبيعة » وهي « سلسلة من الكتيبات العلمية أعدت خصيصاً للأطفال ما بين السابعة والثانية عشرة من العمر، وغايتها تقديم المادة العلمية بلغة قصصيه شيقة مع الرسوم الملونة الجميلة » [٧].

وتتناول هذه السلسلة علوم الحياة، والعلوم الطبيعية العامة ، يتعلم منها الطفل بكل يُسر خصائص صنوف من الحيوان والنبات وغير ذلك مما هو مُسخر للبشر من طاقات الطبيعة وفوائدها جميعاً للإنسان . وتحرص هذه السلسلة على أغناء لغة الطفل بحيث يكتسب من هذه السلسلة أكثر من ألفي كلمة تعبر عن خمسمائة فكرة أو مفهوم على الأقل .

ومثل هذه الموضوعات تحتاج من الأديب إلى أمرين :

١ ـ فهم الموضوعات التي سيكتب عنها للأطفال ، والإحاطة بها من الناحية العلمية الاختصاصية بشكل يسمح له بالتصرف في عرض المعلومات واختيار المناسب منها بشكل يتلاءم مع السن والمرحلة والهدف .

٢ ـ القدرة على اختيار الأسلوب السهل الواضح ، والمفردات العلمية المناسبة ، والطريقة التي تجعل الموضوع مشوقاً مستساغاً مفهوماً من الطفل .

وكل ما يتعلق بعالم الحيوان والنبات ومظاهر الحياة والبيئة ينضوي تحت هذا القسم ويخدم الأهداف المحددة لأدب الأطفال ، كما يمكن ـ في هذا القسم ـ استخدام الخيال العلمي للوصول إلى المطلوب .

كما يجب على الأديب المسلم الذي يكتب في أدب الطفل المسلم مراعاة أمور عدة منها :ـ

١ ـ يجب على كل أديب مسلم إزاء أدب الأطفال أن يسهم بابداعاته في الكتابة للأطفال على أسس سليمة، وبأسلوب مناسب، مع البحث الجاد عن سمات الأدب ومميزاته من خلال التجربة التي تستوجب معرفة نفسية الطفل في كافة المراحل، معرفة قائمة على فهم الطبيعة الإنسانية ، والفطرة البشرية كما خلقها الله عز وجل، ومعرفة سماتها ، ومنازعها ودوافعها وغرائزها ، والمؤثرات التي تترك بصماتها عليها . من خلال دراسة الإسلام ، ودراسة ما ورد في ذلك عن النفس والحواس، والطفولة والاولاد ، وهناك قدر كبير من النصوص ، والدراسات التي تحتاج إلى الدارس المخلص البصير، لتمده بمعرفة قويمة تساعده على اكتشاف السبل الصحيحة للتعامل مع الطفل من خلال الكلمة المبدعة.

٢ ـ كذلك يستوجب أدب الطفل ،والكتابة للأطفال من الأديب معرفة التصور الإسلامي الشامل للحياة ، معرفة صحيحة موثقة ، تعتمد على النصوص الصحيحة، والوقائع الثابتة ، والأحكام الشرعية من مصادرها الموثقة .

٣ ـ كما يحتاج الأديب إلى معرفة مميزات المجتمع الإسلامي التي تمنحه هذه الصفة، وتجعله أهلاً لتحمل الأمانة والنهوض بالمسؤولية ، وكذلك معرفة أساسيات التربية الإسلامية ، ووسائلها وأهدافها .

والله من وراء القصد وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ...

الهوامش

١ - جامع احكام الصغار ، لمحمد بن محمود الأسروشي ، ص ٩ .

٢ - وهناك كتب أخرى مثل :ـ تحفة المودود بأحكام المولود لإبن القيم الجوزية . وتأديب الناشئين بأدب الدنيا والدين ، لإبن عبد ربه الأندلسي .

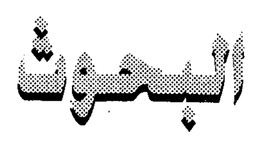
٣ - وللمزيد عن دراسات وكتب حول عناية الإسلام بالطفولة قولاً وعملاً ، انظر : أدب الطفل المسلم لأبي الحسن الندوي ، عناصر أدب الأطفال الإسلامي ، للدكتور/ سيد إبراهيم الندوي ، أدب الأطفال في ضوء الإسلام ، للدكتور/ نجيب الكيلاني .

٤ - انظر مثلاً: (أدب الأطفال ـ مبادئه ومقوماته الأساسية) تأليف محمد محمود رضوان وأحمد نجيب ، ص ١٧ ، وكتاب (أدب الأطفال ومكتباتهم) تأليف/ هيفاء شرايحة ، ٢٧ـ٣٠، وكتاب (أدب الأطفال في ضوء الإسلام) للدكتور/ نجيب الكيلاني ص ٢٨، وكتاب (أدب الأطفال ـ فلسفته وفنونه ووسائطه) تأليف هادي نعمان الهيتي ، ص ١٠٤ـ١٠٦ .

٥ - سورة (ق) الآيتان (٦ ، ٧) .

٦ - سورة (الذاريات) الآية (٢١) .

٧ - من مقدمة هذه السلسلة انظر مثلا « حكاية نحلة » دار دلفين للنشر ط ١٩٨٢/٢م، إشراف الدكتور/ محمد هيثم الخياط .



معايير المفاضلة بين الأنواع الأدبية في النقد العربي

د. محمد خير شيخ موسى

شغلت مسألة الموازنة بين الشعر والنثر وتفضيل أحدهما على الآخر، جمهور الأدباء والنقاد العرب منذ وقت مبكر يعود إلى القرن الثالث للهجرة، فكان لها صدى واسع في مؤلفاتهم وكتبهم وخصها بعضهم بكتب أو رسائل مفردة، ثم أتسع مجال القول فيها بعد ذلك، فلا نكاد نجد ناقدا من نقاد القرن الرابع وما تلاه يعدل عن الوقوف عندها، والادلاء بدلوه فيها، فقال الكلاعي[1] (من نقاد القرن السادس) في صدر الفصل الذي خصصه للحديث عن: « الترجيح بين المنظوم والمنثور: وهو يمّ خاض فيه الخائضون، وميدان ركض فيه الراكضون »[2] ومع ذلك، فقد خاض فيه وركض، وأسهب في الحديث عنه، وفضل الشعر على النثر، وأورد على ذلك حججه وبراهينه التي لم يجد فيها جديداً لم يأت سابقوه على ذكره.

المفاضلات في الجاهلية والإسلام:

وإذا ما حاولنا البحث في أصول هذه المسألة وجذورها في تاريخنا الأدبي، فإننا لن نعدم بعض الأخبار أو النصوص التي تشير إلى تفضيل هذا الفن أو ذاك اعتمادا على بعض الأسس والمقاييس، ومن ذلك قول أبي عمرو بن العلاء[3] (١٥٤هـ): « وكان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب، لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم، ويفخم شأنهم، ويهول على عدوهم ... فلما كثر الشعر والشعراء، واتخذوا الشعر مكسبة، ورحلوا إلى السوقة، وتسرعوا في أعراض الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر ولذلك قال الأول: الشعر أدنى مروءة السري، وأسرى مروءة الدني، ولقد وضع الشعر من قدر النابغة الذبياني، ولو كان في الدهر الأول ما زاده إلاّ رفعة »[4].

في هذا النص إشارة إلى مرحلتين من مراحل تطور الشعر والخطابة العربية، ومكانة الشاعر والخطيب في الجاهلية، وأسباب تفضيل أحدهما على الآخر. والمقاييس التي اعتمدوا عليها في ذلك، وهي كما يرى أبو عمرو - مرتبطة بوظيفة الفن الأدبي وأثره في الحياة والمجتمع، وما يمكن أن يعود به على أهله من منافع أو مضار، قدر ارتباطها

بالقيم السائدة في المجتمع الجاهلي ، وأنفة العربي فيه من التزلف والاستجداء والمسألة، وما لكثرة رواد هذا الفن أو ذاك أو قلتهم من أثر في تفضيله ، ورفع مكانة صاحبة أو الغض منها ، إضافة إلى قدرة هذا الفن على التأثير في النفوس، وأثره في حياة أهل ذلك العصر ، مع قلة الشعراء فيه ، والتزامهم بالقيم الاجتماعية السائدة ، مما يكفل لهم التقدير والإحترام ، ويدعو الناس إلى تفضيلهم على غيرهم من أصحاب صنعة الكلام ، و على رأسهم الخطباء ، فذكر صاحب العمدة أن « القبيلة من العرب كانت إذا نبغ فيها شاعر ، أتت سائر القبائل فهنأتها بذلك ... لأنه حماية لأعراضهم ، وذب عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم ، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد ، أو فرس تنتج ، أو شاعر ينبغ فيهم »[٥] .

وعلل الجاحظ تفضيل العرب للشاعر أو الخطيب في مرحلة تاريخية ما ، فأرجع ذلك إلى سببين رئيسين ، يرتبط أولهما بوظيفة الشعر ، وحاجتهم إليه لتخليد مآثرهم، وتذكيرهم بأيامهم ووقائعهم ويتصل الآخر بكثرة الشعراء والخطباء أو قلتهم فقال : «وكان الشاعر أرفع قدرا من الخطيب ، فلما كثر الشعراء وكثر الشعر ، صار الخطيب أعظم قدرا من الشاعر[٦] ، مغفلا اتخاذهم الشعر مكسبة أو مثلبة وأثر ذلك في تدني مرتبة الشاعر عند الجاهلين كما ذكر أبو عمرو وأكده ابن رشيق في قوله : « وكان الشاعر في مبتدأ الأمر أرفع منزلة من الخطيب لحاجتهم إلى الشعر ... ولما تكسبوا به... وتولوا به الأعراض ... صارت الخطابة فوقه. وعلى هذا المنهاج كانوا حتى فشت فيهم الضراعة ... واطمأنت بهم دار الذلة ، إلا من وقر نفسه وقارها ، وعرف لها مقدارها[٧] ففرق بذلك بين نوعين مختلفين من الشعراء ، ولم يجعل مبدأ تفضيل الخطباء عليهم عاما وشاملا ، وعاد إلى تأويل ذلك في عدة مواضيع من العمدة ومنها قوله : « وإنما قيل في الشعر : إنه يرفع من قدر الوضيع الجاهل ، مثلما يضع من قدر الشريف الكامل ، وإنه أسرى مروءه الدني ، وأدنى مرؤه السري ، لأمر ظاهر غاب عن بعض الناس ، فتأوله شرَّ تأويل ، وذلك أن الشعر لجلالته يرفع من قدر الخامل إذا قدح به ، مثلما يضع من قدر الشريف إذا اتخذه مكسبا ، كالذي يؤثر من سقوط النابغة الذبياني بامتداحه النعمان بن المنذر ، وتكسبه بالشعر ... فأما من صنع الشعر فصاحة ولسنا ، وافتخارا بنفسه وحسبه ، وتخليدا لمآثر قومه ، ولم يصنعه رغبة ولا رهبة، ولا مدحا ولا هجاء ... فلا نقص عليه في ذلك ، بل هو زيادة في أدبه ، وشهادة لفضله[٨]

على أن من المرجح لدينا أن مكانة الخطيب ، وتفضيله على الشاعر أو غيره عند الجاهلين إنما تتعلق بأمور أخرى قد تكون أكثر قيمة وأهمية في تعليل هذه الظاهرة وربطها بأسبابها الحقيقة التي ترتبط بمفهوم السيادة والرئاسة ولوازمها في المجتمع القبلي ، أكثر من ارتبطها بالشعر والشعراء .كثرتهم وقلتهم ، أو الموازنة بينهم وبين الخطباء وتفضيل أحد الفريقين على الآخر .

فمن المعروف أن الحكمة واللسن والفصاحة والخطابة من أهم شروط السيادة ولوازمها في المجتمعات القبلية ، فسيد القبيلة في هذه المجتمعات هو خطيبها ولسانها الناطق باسمها في المحافل والمجامع والمقامات والمجالس ، والخطيب - وإن لم يكن شيخ القبيلة ورئيسها - فهو سيد حكيم وقادر على الوفاء بحقوق الخطابة وأغراضها ، كالصلح والحرب والحمالة وغيرها من أنواع الخطب والمقامات التي لايقوم فيها عادة إلا كل سيد مبجل وفصيح ، فكان كعب بن لؤي الجد السابع للرسول صلى الله عليه وسلم سيد قريش وخطيبها ، وبلغ من علو المكانة ، ورفعة القدر أن أرخوا بموته[٩] ، كما كان هانئ بن قبيصة سيد بني شيبان وخطيبهم يوم ذي قار[١٠] ، وعدَّ قس بن ساعدة من سادة إياد وخطبائها وحكمائها[١١] ، وكذلك كان معظم خطباء العرب من السادة الحكماء والرؤساء ، فاقترن ذكرهم لدى الجاحظ وغيره وبهذه الصفات كقوله « ومن القدماء ممن كان يذكر بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة ... لؤي بن غالب وقس بن ساعدة وقصي بن كلاب . ومن الخطباء البلغاء والحكماء الرؤساء : أكثم بن صيفي وربيعة بن حذار وهرم بن قطبة وعامر بن الظرب[١٢] وكانت العرب تختار في خطب الوفادة خاصة عمداءها أو رؤساءها وعلل ذلك صاحب العقد بقوله : « فإنها مقامات فضل ، ومشاهد حفل يتخير لها الكلام ، وتستهذب الألفاظ ... ولابد للوافد عن قومه أن يكون عميدهم وزعيمهم ... فهو واحد يعدل قبيلة ، ولسان يعرب عن ألسنة »[١٣] .

واستمرت هذه المفاهيم بعد الإسلام الذي عزز مكانة الخطابة فجعلها ركنا من أركان بعض الصلوات ورفع أقدار الخطباء فكانوا من الخلفاء والأمراء والرؤساء ، وعلى رأسهم النبي صلى الله عليه وسلم وهو أخطب خطباء الإسلام ، وكذلك كان الخلفاء والعمال والولاة والقواد من أشهر الخطباء في الغالب الأعم ، فذكر المرزوقي (٤٢١هـ) أن «ملوك العرب قبل الإسلام وبعده كانوا يتبجحون بالخطابة ، ويعدونها أكمل أسباب الرئاسة »[١٤] وروى صاحب العقد في أخبار وفود العرب على عمر بن الخطاب أن

الأحنف بن قيس (نحو ٧١هـ)[١٥] وقف بين يديه خطيبا فأعجبه كلامه فقال : « هذا والله السيد[١٦] ، هذا والله السيد » إذ كان مفهوم السيادة عندهم مرتبطا على الدوام بالخطابة وما تفصح عنه من معاني الحكمة والسيادة ، فروى صاحب البصائر أن إعرابيا « نظر إلى خالد بن صفوان »[١٧] (نحو ١٣٥هـ) وهو يتكلم فقال : كيف لم يسدد هذا مع بيانه[١٨] .

ومن صفات الخطيب ، ولوازم الخطبة عند العرب الاعتماد على رمح أو سيف أو قوس ، وأخذ المخاصر أو العصي أو القني أو غيرها مما يرمز إلى معاني القوة والسيادة والرئاسة وكثرت في أشعارهم مدائح الخطباء أو رثاؤهم ، وترددت فيها أصداء الحكمة والسيادة والكرم ومن ذلك قول أوس بن حجر[١٩] في رثاء فضالة بن كلدة[٢٠] :

أبا دليجة من يوصي بأرملةٍ   أم من لأشعث ذي طمرين طملالِ
أم من يكون خطيب القوم إن حفلوا   لدى الملوك أولي كيد وأقوالِ[٢١]

وقول بعض شعراء الخوارج يرثي أبا داود بن حريز الإيادي ويذكر سادة إياد وخطباءها[٢٢] .

زعيمُ نزارٍ كلّها وخطيبها   إذا قام طاطا رأسه كلّ مشغبِ
سليلُ قرومٍ سادةٍ ثم قالةٍ   يبذون يوم الجمع أهل المحصّبِ
كقس إياد أو لقيط بن يعمر   وعذرة والمنطيق زيد بن جندب[٢٣]

وأكد بعض المعاصرين إرتباط الخطابة بهذه المعاني والمفاهيم ، فذهب نالينو إلى القول : إن الألفاظ التي كان العرب يعبرون بها عن السيد أو القيل ، إذا بحثت عنها - بالمقارنة مع اللغات السامية الأخرى - وجدت معناها الأصلي هو : القائل أو المتكلم[٢٤] وأشار كاتب مادة الخطابة في دائرة المعارف الإسلامية إلى أن « لفظ الخطيب يدل على الفارس الشجاع لدى العرب ... وهو مرادف للأمير أحيانا »[٢٥] ، وأيد هذا الرأي ببعض الأدلة من نصوص وأشعار ، وعلل د. إحسان النص علو مكانة الخطيب وتفضيله على الشاعر في الجاهلية : لأنه لا يكون إلا سيدا وحكيما »[٢٦] .

وعلى ذلك يمكن القول إن المفاضلة بين الشعر والخطابة في الجاهلية أو الإسلام ليست مرتبطة بما ذكره أبو عمرو بن العلاء ، أو الجاحظ أو ابن رشيق أو غيرهم فحسب، إذا كان لكل فن منهما دوره ومهمته وإنما هي مرتبطة بما ذكرناه حول صلة الخطابة

بالسيادة والرئاسة وتعلقها بها . وإن كان العرب عموما يميلون إلى تفضيل الشعر على غيره من فنون القول ، ويعللون ذلك بأسباب فنية وتربوية وتعليمية وخلقية مختلفة ، وتحفل كتب الأدب والنقد بكثير من الأخبار والأقوال التي تدل على ذلك ، كقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه »(٢٧) ولذلك فقد كتب إلى أبي موسى الأشعري(٢٨) (٤٤هـ) يقول : « مر من قبلك بتعلم الشعر فإنه يدل على معاني الأخلاق ، وصواب الرأي ، ومعرفة الأنساب(٢٩) . وجعله معاويه « أعلى مراتب الأدب »(٣٠) وفضله على النثر في بعض المواقف ، إذ قال له هدية بن خشرم : أتحب أن يكون الجواب شعرا أم نثرا ؟ فقال : بل شعرا ، فإنه أمتع(٣١) .

وكانت أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ميادين يتبارى فيها الشعراء والخطباء والبلغاء ، ويحكم لهم فيها بالسبق والتقدمة والتفضيل أهل الخبرة والمعرفة بنقد الكلام، ومن ذلك ما يروي من خبر ابنتي الخس جمعة وهند(٣٢) إذ « وافتا عكاظ في الجاهلية ، فاجتمعنا عند القلمس الكناني(٣٣) ، فقال لهما : إني سائلكما لأعلم أيكما أبسط لسانا ، وأظهر بيانا ، وأحسن للصفة إتقانا . فقالتا : سلنا عما بدا لك ، فستجد عندنا عقولا ذكية ، وألسنة قوية ، وصفة جلية (٣٤)... ثم تعاورتا الكلام بين يديه شعرا ونثرا بليغا ، أحسنتا فيه جميعا ، فحكم لهما معا بالفضل والإحسان في الشعر والنثر ، وفي ذلك ما يدل على حضور النثر في ميادين الموازنة والمفاضلة إلى جانب الشعر في أسواق العرب في الجاهلية ، واستمر ذلك بعد الإسلام أيضا ، فذكر الجاحظ في أثناء حديثه عمن كان يجمع بين الشعر والخطابة في بلغاء العصر الأموي ويتبارون فيهما أن : الكميت والبعيث والطرماح(٣٥) كانوا شعراء خطباء ، وكان البعيث أخطبهم، وقال يونس لئن كان مغلبا في الشعر ، لقد غلب في الخطب وإذا قالوا : غَلَبَ فهو الغالب(٣٦) .

وحين نزل القرآن الكريم على النبي صلى الله عليه وسلم كانت آياته من جنس كلام العرب إلا إنه كان طراز وحده في بلاغة تعبيره وقوة تأثيره ، فحاروا في أمره ، فراحوا يعرضونه على فنون القول التي يعرفونها ، ويوازنون بينه وبينها ، فعجزوا عن نسبته إلى واحد منها ، ولم يجدوا بدا من الاعتراف بتميزه منها ، وتفضيله عليها ، كما نجد في خبر الوليد بن المغيرة (١٠ هـ) وقد سمع آياته البينات فوازن بينها وبين الشعر وأسجاع الكهان فوجدها مختلفة عنها ، ففضله عليها وقال : « والله ما هو بزمزمة

الكاهن ولا سجعه ... وما هو بالشعر ... والله إن لقوله لحلاوة ، وأن له لطلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة »[٣٧] .

وترددت أصداء هذه الموازنات في القرآن الكريم نفسه ، إذ توالت آياته تنفي الشعر وغيره من فنون القول عنه[٣٨] ، وتتحدى العرب أن يأتوا بمثله ، ليثبت عجزهم وبطلان دعاواهم ، وتؤكد فضل القرآن وإعجازه ، فقال تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »[٣٩] وكانت سورة الشعراء أوضح صورة للفرق بين هذا القرآن ومن أنزل عليه وبين غيره من الكهان والمتنبئين والشعراء في أقوالهم وأسجاعهم وأشعارهم وأتباعهم ، وفي ذلك كله مجال واسع للموازنة والمقارنة والمفاضلة وفيها يقول تعالى : « هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون مالا يفعلون . إلا الذين آمنو وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وأنتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون[٤٠] .

وكان لهذه الموازنات والمفاضلات التي وردت على ألسنة بعض الجاهلين ، أو في القرآن الكريم ثم على أفواه بعض أعداء العرب والمسلمين من الزنادقة والشعوبيين بعد ذلك بزمن غير قصير ، أكبر الأثر في نشأة فكرة الموازنة الشاملة بين القرآن وغيره من فنون القول ، والشعر منها خاصة ، وتأليف الكتب الكثيرة في اعجازه ، مما أدى إلى تزايد الاهتمام بالمفاضلة بين الشعر والنثر عامة في ميادين الأدب والنقد ، وكان للقرآن أثر ظاهر في توجيه آراء أصحاب هذه المفاضلات ، وتحديد مواقفهم منها ، كما سيبتدي بعد قليل .

المفاضلات في العصر العباسي :

وإذا كان الاهتمام بهذه المفاضلات عند أصحاب الإعجاز يخدم غرضا خاصا ومحددا يتجلي في الرد على الطاعنين في القرآن الكريم ، وإثبات تميزه وتفرده وإعجازه البياني ، فإن لهذه المسألة وجها آخر لدى المشتغلين بالأدب والنقد ، ويتبدي في الانتصار للشعر والدفاع عنه ، في وجه من يفضل النثر عليه ، بعد أن أخذ النثر - والترسل خاصة - يحتل مكانا رفيعا في الساحة الأدبية منذ العصر العباسي ، إذ اتسعت أغراضه ، وتنوعت مذاهبه ، وارتقت أساليبه . واحتل أصحابه من الكتاب

والمترسلين خاصة أرفع المناصب ، وأعلى المراتب ، فأصبحوا وزراء الدولة وأصحاب دواوينهما وكتابها ، فقصدهم الشعراء مادحين يشيدون بفنهم النثري البديع ، وأبدى المتأدبون والنقاد اهتماما واسعا بأدبهم الرفيع ، فذهب د. زكي مبارك إلى القول إن هؤلاء الكتاب قد ألفوا « الكتابة في بعض الموضوعات التي كانت خاصة بالشعر كالغزل والمديح والهجاء والفخر والوصف ، ونقلوا إلى النثر محاسن الشعر من الاستعارة والتشبيه والخيال، والنثر إذا أخذ خصائص الشعر أصبح أقدر منه على الوصف لخلوه من قيد الوزن والقافية ... بحيث يرى القارئ من جمال الصنعة ودقة الأسلوب ما يغنيه عن التفكير في قصائد الشعراء »[٤١] وكان لذلك كله أثره الواضح في المفاضلة بين الشعر والنثر .

وقد كثرت هذه المفاضلات في العصر العباسي ، وشارك فيها عدد كبير من الأدباء والنقاد ، وكانت لهم فيها حجج كثير ، وآراء متباينة ، ومواقف مختلفة ، يمكن إجمالها بثلاثة مواقف رئيسية : ينطلق أولها من تفضيل الشعر على سائر فنون القول المنثور، على حين يفضل آخرون النثر عليه ، وآثر بعضهم اتخاذ موقف توفيقي معتدل بينهما، وكان لأصحاب كل فريق منهم حججه التي يعتمد عليها في تسويغ موقفه ، والدفاع عن رأيه .

وكان من آثار هذه المفاضلات التي احتدم الصراع النقدي حولها منذ أوائل القرن الثالث تقريباً ، عدة كتب نقدية ورسائل منها : كتاب « تفضيل الشعر »[٤٢] لإسحق الموصلي[٤٣] (٢٣٥ هـ) و « رسالة البلاغة »[٤٤] للمبرد (٢٨٥هـ) في المفاضلة بين بلاغة الشعر وبلاغة النثر ، وأخرى لثعلب[٤٥] (٢٩١هـ) في الموضوع نفسه[٤٦] ، و « رسالة في تفضيل النثر على النظم »[٤٧] لأبي إسحق الصابي[٤٨] (٣٨٤هـ)، و «رسالة الفرق بين المترسل والشاعر »[٤٩] لسنان بن ثابت[٥٠] (٣٣١هـ) و «فضل صناعة الكتابة »[٥١] لابن زيد البلخي[٥٢] (٣٢٤هـ) و « رسالة في الكلام على الكلام »[٥٣] لأبي حيان التوحيدي (٤١٤هـ) وغيرها من الكتب أو الرسائل التي لم يصل إلينا منها سوى رسالة المبرد ، وما زال الباقي منها في حكم المفقود ، فضلاً عما في كتب الأدب من صفحات مطولة في هذا الموضوع الذي أنقسم حوله النقاد إلى مفضل للنثر أو منتصر للشعر.

أنصار الشعر وحججهم في تفضيله على النثر :

تختلف حجج أنصار الشعر ومفضليه وتترجح ما بين العمق والنفاذ ، أو السطحية والبساطة ، إذ لا يكاد يتجاوز بعضهم فيها حدود القالب الفني للشعر ، وبنيته الإيقاعية التي تتمثل في الوزن والقافية فحسب ، فاتخذوا منهما حجة على فضل الشعر على النثر، إذ هما يجعلانه أيسر على الحفظ ، وأسير في الآفاق ، وأسهل على الآذان والأسماع ، وأصلح للتلحين والغناء ، وأوعب للعلوم والآداب ، وأوفي في الدلالة على الشاهد والمثل ، وأوفر حظا في الشهرة وأكثر نصيبا في المكافأة وغير ذلك من الحجج التي لاتكاد تمس جوهر الشعر إلا لماما ، على حين تعدى بعضهم الآخر حدود هذه الظواهر الشكلية إلى الخوض في أعماق التجربة الشعرية ، وإعتماد بعض المقاييس الفنية والأسلوبية ، واتخاذها معايير للمفاضلة .

فحين بعث ابن الخليفة الواثق إلى المبرد (٢٨٥هـ) يسأله : أي البلاغتين أبلغ، بلاغة الشعر أم النثر ؟ أجابة برسالة مفصلة ، بدأها بتعريف البلاغة وشرائطها التي يجب أن يستوفيها الشعر والنثر كي تتعادل كفتاهما في ميزان النقد وعياره ، فرجحت كفة الشعر على النثر بزيادة الوزن والقافية فيها فقال : « فإذا استوى هذا الكلام المنثور، والكلام المرصوف المسمى شعرا ، فلم يفضل أحد القسمين صاحبه فالمرصوف أحمد لأنه أتى بمثل ما أتى به صاحبه ، وزاد وزنا وقافية . والوزن يحمل على الضرورة، والقافية تضطر إلى الحيلة »(٥٤) ، فعيار المفاضلة عنده يعتمد على الوزن والقافية بشكل رئيسي ، وليسا يدلان في نظره ، على شئ أكثر من الجهد الذي يبذله الشاعر في إقامة الوزن وتعديله ، وإنزال القوافي منازلها ، وفي ذلك ما فيه من حمل على الضرورة، واحتيال على القافية ، وهو مقياس شكلي وبسيط ، لم يلتفت المبرد فيه - مع ذلك - إلى قيمة الإيقاع في التعبير على المشاعر والأحاسيس ، والتأثير في الأسماع والنفوس .

وللوزن والقافية عند ابن قتيبة (٢٧٦هـ) ميزة أخرى ، ذات أهمية توثيقية خاصة، تتجلى في تيسير حفظ الشعر وروايته ، وصعوبة تبديله وتغييره ، وسهولة تصحيحه وتوثيقه ، فتحفظ بذلك علوم العرب وآدابها وأخبارها وأنسابها، ويقوم مقام الكتاب لها ، وليس يتسنى مثل ذلك في النثر وفي ذلك يقول: « وللعرب الشعر الذي أقامه لها الله مقام الكتاب لغيرها، وجعله لعلومها مستودعا، ولآدابها حافظا،

ولأنسابها مقيدا ، ولأخبارها ديوانا لا يرث ولا يبيد ، وحرسه بالوزن والقوافي وحسن النظم وجودة التعبير من التدليس والتغيير ، فمن أراد أن يحدث فيه شيئا عسر ذلك عليه ، ولم يخف كما يخفي في الكلام المنثور »[٥٥] على أن قيمة هذا المقياس التوثيقي قد بدأت تضعف وتقل بعد تفشي الكتابة في العرب وإنتشارها بعد الإسلام ، وفي زمن ابن قتيبة خاصة .

والتفت القاسم بن العباس المعروف بابن ذكوان إلى جانب فني وأسلوبي ذي أهمية كبرى في التفضيل بين الشعر والنثر ، ويتجلى فيما يمتاز به الشعر من قدرة على تكثيف المعاني وإيجازها ، فقال في التعليق على بعض أشعار النابغة الذبياني فيما روى عنه معاصره أبو أحمد العسكري[٥٦] (٣٨٢هـ) : « قال ابن ذكوان ـ وما رأيت بالشعر أعلم منه ـ لو أراد كاتب بليغ أن ينثر من هذه المعاني ما نظمه النابغة ، ما جاء إلا في أضعاف كلامه »[٥٧] .

ويبدو أن الدافع الرئيسي الذي حفز الحاتمي[٥٨] (٣٨٨هـ) إلى تأليف « حلية المحاضرة » إنما يكمن في الانتصار للشعر ، وتفضيله على النثر ، فبدأه بمقدمة مسهبة ، عرض فيها حججه الكثيرة في تفضيل المنظوم على المنثور ، وقال في خاتمتها : « وقد رأيت أن أفترع كتابا أشرع فيه لمحاسن الشعر شريعة ترد القرائح ماءها ، وترود مساقط أندائها »[٥٩] وفي ذلك دلالة على حدة الصراع النقدي حول هذا الموضوع في عصره ، فأبدى اهتمامه الواسع به ، وبدأ حججه في تفضيل الشعر بتأكيد بلاغة أساليبه، ونصاعة تعابيره ، وشدة تأثيره فقال : « وجدت البلاغة منقسمة قسمين منظوما ومنثورا ، وأولى هذين القسمين بالمزية : المنظوم ، فإنه أبدع مطالع ، وأنصح مقاطع ، وأطول عنانا ، وأفصح لسانا ، وأنور أنجما ، وأنفذ أسهما ، وأشرد مثلا ، وأيسر لفظا ومعنى »[٦٠] وأنتقل إلى ما يتصف به الشعر من خفة على الأسماع ، وسهولة في الحفظ ، وصلة بالمشاعر ، وجمع لفنون البديع فقال « والمنظوم أرشق في الأسماع، وأعلق بالطباع ، وأبقى مياسم ، وأذكى مناسم ، وأخلد عمرا ، وأجمع لأفانين البديع » ثم أشار إلى قوة تأثيره في السامعين والمتلقين فقال : «والمنظوم أهز لعطف الكريم ، وأجمع لشتات محاسنه ، كما أنه أقل لغرب اللئيم ، وأبدى لصفحة مطاعنه»[٦٢] .

وقد تنبه الحاتمي على أن معظم هذه الخصائص والنعوت مما يشترك فيه الشعر والنثر

معا ، فالتفت إلى الوزن والقافية يستمد منهما البرهان الساطع ، والحجة التي لا تدفع، لخلو المنثور منهما فقال « والمنثور مطلق من عقال القوافي ، فإذا صفا جوهره ، وطاب عنصره ، ولطفت استعاراته ، وغيرهما مما عينت وأعين عليه »(٦٣) . ومن الطريف أن نجد الحاتمي يفسح المجال أمام المنثور ليفضل المنظوم حين تتقطع سائر الأسباب التي تربط الشعر بالبلاغة والأدب فيقول : « إذا كان غير معتدل النظم ، ولا متناسب القسمة ، ولا مقبول العبارة ، وكانت معانيه بعيدة ، وألفاظه شريدة ... فسليم المنثور ، وأن عطل من حلي البيان وتعرى من حلل الإحسان ، أعذب شربا ، وأكرم عرفا »(٦٤) وعلى ذلك يظل المنثور لديه في مرتبة أدنى من المنظوم إلا في القليل النادر الذي لا يقع بمثله حكم : كما يقول : « وربما أتفق في النادر - الذي لا يقع بمثله حكم - للبليغ في صناعة النثر معنى انتظمه الشعر ، فتكون لمنثوره لوطة بالقلب وتعلق بالنفس ليس لمنظومه »(٦٥) .

ومن الواضح أن عصبية الحاتمي للشعر ، وإصراره على تفضيله على النثر دونما مسوغات مقنعة ، قد جعله يغض الطرف عن كثير من المحاسن التي تشتمل عليها فنون النثر ، ويغفل الإشارة إلى بعض خصائص الشعر الفنية والأسلوبية والشعورية التي يمكن أن تكون أكثر قيمة وأهمية مما أورده من الحجج أو الأدلة التي ساقها في تفضيله واعتمد فيها على الصياغة الإنشائية ، واضفاء مسحة من سحر البيان عليها ، دون أن يكون وراءها كبير طائل .

ولم يكن أبو هلال العسكري (٣٩٥هـ) أوفر حظا في القدرة على الإقناع بفضل الشعر على النثر من الحاتمي ، على الرغم من كثرة حججه وبراهينه التي تكاد تشمل معظم ما وصل إليه أنصار الشعر في عصره من تفتيق لهذه الحجج وتوليد ، ويمكن اجمالها في قوة ألفاظ الشعر ، وشدة تأثيره ، وتفرده بالوزن والقافية ، وسهولة حفظه وروايته ، والحاجة إليه في ميادين اللغة والنحو والأخبار والأنساب ، وصلاحيته للتلحين والغناء ، وما يعود به على مصاحبه من منافع وجوائز ، وقدرته على الوفاء ببعض الأغراض التي لا ينهض بها النثر كالفخر والهجاء والغزل والمديح ، وقد أجمل هذه الحجج في قوله : « ومن مراتبه العالية التي لا يلحقه فيها شيء من الكلام : النظم الذي به زنة الألفاظ ، وتمام حسنها وليس شئ من أصناف المنظومات يبلغ في قوة اللفظ منزلة الشعر ومما يفضل به غيره أيضاً طول بقائه على أفواه الرواة ... واستفاضته في

الناس ... وأنه ليس يؤثر في الأعراض والأنساب تأثير الشعر ... وليس شئ يقوم مقامه في المجالس الحافلة ... ولا يفوز أحد من مؤلفي الكلام بما يفوز به صاحبه من العطايا الجزيلة ... وأن الألحان لا تتهيا صفتها إلا على كل منظوم من الشعر ... وأن ألفاظ اللغة إنما يؤخذ جزلها وفصيحها وغريبها من الشعر ... وكذلك لا نعرف أنساب العرب وتواريخها وأيامها ووقائعها إلا من أشعارها ... ومن صفات الشعر التي يختص بها دون غيره أن الإنسان إذا أراد مديح نفسه فأنشأ رسالة في ذلك أو عمل خطبة فيه جاء في غاية القباحة ، وأن عمل في ذلك أبياتا من الشعر احتمل ، وأن صاحب الرياسة والأبهة لو خطب بذكر عشق له ووصف وجده به لاستهجن منه ذلك، وانتقص ، ولو قال في ذلك شعرا لكان حسنا »(٦٦) .

ومن الملاحظ أن أبا هلال ـ شأنه في ذلك شأن كثير من النقاد المنتصرين للشعر ـ يغفل وظيفة النوع الأدبي إغفالا تاما في دفاعه عنه، وتعداد محاسنه التي ينبغي أن تقابل ـ بالضرورة مساوئ النثر وتتناقض معها ، مما سوغ له مطالبة الخطيب تضمين الغزل خطبته ، وأن كان ذلك غير متعذر في فن آخر من فنون النثر كالرسائل التي بدأت تنافس الشعر في العصر العباسي ، وتجري في سائر ميادينه وأغراضه من غزل ومديح ورثاء ووصف وغيرها ، كما بدأت الكتب المؤلفة في أخبار العرب وأيامها وأنسابها تحل محل الشعر وتسد مسدّ الشاعر ، وأخذت القصص المنثورة والأسمار والمقامات طريقها إلى مجالس الظرفاء والأدباء ، ومحافلهم إلى جانب الشعر > وربما فضلها بعض أهل العصر عليه وذلك مرتبط بعدد من العوامل الحضارية المتشابكة ، لعل أهمها قدرة النثر على الوفاء بحاجات العصر الفكرية أو الحضارية والإدارية ، إضافة إلى مالحق النثر وفنونه في هذا العصر من تنوع وارتقاء »(٦٧) .

ويبدو أن أبا حيان التوحيدي (نحو ٤٠٠هـ) لم يكن راضيا عما آلت إليه مسألة المفاضلة بين الشعر والنثر من جدل سطحي بجانب خفيات الحقائق ، ويحتج بظاهر القول، ونسب ذلك إلى أنصار الشعر فقال : «سأل سائل عن النظم والنثر ، وعن مرتبة كل واحد منهما ، ومزية أحدهما على الآخر ونسبة هذا إلى ذاك ، وعن طبقات الناس فيهما ، فقد قدّم الأكثرون النظم على النثر ، ولم يحتجوا فيه إلا بظاهر القول ... وجانبوا خفيات الحقيقة ، وقدم الأقلون النثر ، وحاولوا الحجاج فيه »(٦٨) .

ومع ما هو معروف عن أبي حيان من ظمأ عقلي وثقافي إلى معرفة الحقيقة ، ورغبة

في النفاذ في أغوارها ، فقد شكلت هذه القضية همّاً حاضراً في معظم كتبه ورسائله، وسؤلاً حائراً في ذهنه ، فحمله إلى عدد من أصحابه وشيوخه ، ومعظمهم من أهل الجدل والفلسفة والكلام ، للوقوف على آرائهم فيها ، فجاءت آراؤهم فيها ملونة بأصباغ ثقافاتهم العقلية ، وترددت فيها أصداء الجوهر والعرض والكل والجزء ، والوحدة والتشتت ، والصدق والكذب ، والزيادة والنقص وغيرها من آثار تلك الثقافات، مما تحول بهذه المسألة إلى جدل عقلي وكلامي ، دون أن تخلو بعض هذه الآراء من بعض الملامح الفنية أو النقدية التي تمس جوهر الشعر أو النثر ، وما يتصل بتفضيل أحدهما على الآخر من الحجج والدلائل . التي تمس جوهر الشعر أو النثر ، وكان من الطبيعي أن ينتصر معظم أفراد هذه الطبقة للنثر ، ويفضله على الشعر ، لما له من صلة بثقافاتهم ومجالات عملهم وإشتغالهم ، وأن يكون أنصار الشعر قلة بينهم ، دون أن تتجاوز حججهم في تفضيله حدود الحجج التقليدية المتكررة ، كما نجد في قول مسكويه (٤٢١هـ) : « إن النظم والنثر قسيمان تحت الكلام ... وينفصل النظم عن النثر بفضل الوزن الذي صار به منظوما ، ولما كان الوزن حلية زائدة ، وصورة فاضلة على النثر، معا وصار الشعر أفضل من النثر من جهة الوزن ... فإذا اعتبرت المعاني مشتركة بين النظم والنثر ، فليس من هذه الجهة تميز لأحدهما من الآخر ، بل يكون كل واحد منهما صدقا وكذبا ، وصحيحا وسقيما . وقال : والنظم من الكلام متال اللحن من النظم ... يكتسي منه الكلام صورة زائدة »[٦٩] وليس يخفي أثر المنطق بمقدماته ومقايساته ونتائجه في هذا الرأي الذي فضل به الشعر على النثر على أساس ما في أحدهما من زيادة على الآخر أو نقص .

ولم يغفل أبو حيان الوقوف على آراء عدد من شعراء عصره في أثناء عرضه حجج أنصار الشعر في الليلة الخامسة والعشرين من ليالي «الإمتاع والمؤانسة » فقال : « وأما ما يفضل به النظم على النثر أشياء سمعناها ... وأنا آتي على ما يحضرني من ذلك منسوبا »[٧٠] . وبدأ بعرض حجج الشاعر السلامي[٧١] (٣٩٤هـ) التي لا نجد فيها جديدا سوى الإشارة إلى قيمة الموهبة في الشعر ، وكثرة الدراسات النقدية حوله مما يدل على فضله وتقدمه لديه إذ يقول : « ومن فضائل النظم أن صار لنا صناعة برأسها... وتكلم الناس في قوافيها ، وتوسعوا في تصاريفها وأعاريضها ، وتصرفوا في بحورها ، وأطلعوا على عجائب ما استخزن فيها من آثار الطبيعة الشريفة ، وشواهد القدرة الصادقة ، وما هكذا النثر، فإنه قصر عن هذه الذروة الشامخة ، والقلة

العالية ، فصار بذلك بذلة لكافة الناطقين من الخاصة والعامة ، والنساء والصبيان ، ومن فضائله : أنه لا يغني ولا يحدى إلا به ... وأنه يقال : ما أحسن هذه الرسالة لو كان فيها بيت من الشعر ، ولا يقال : ما أحسن الشعر لو كان فيه شئ من النثر ، وأن صورة المنظوم محفوظة ، وصورة المنثور ضائعة »[٧٢] . ومن الملاحظ أنه لا يفرق - عامدا على ما يبدو - بين النثر العادي والنثر الفني أو الأدبي ، مما يدل على طغيان الجدل والرغبة في المغالبة على آراء كثير من الأدباء والنقاد في هذه المسألة .

ومن الشعراء الذين عرض آراءهم فيها شاعر العصر ابن نباته السعدي[٧٣] (٤٠٥هـ) الذي وجدناه يقتصر من فضائل الشعر على أهميته شاهدا نحويا أو لغويا فقال : « من فضل النظم أن الشواهد لا توجد إلا فيه، والحجج لا تؤخذ إلا منه ... فعلي هذا فالشاعر هو الحجة »[٧٤] ، على حين ذهب الخالع[٧٥] (٤٢٢هـ) إلى تفضيله بما يحققه لصاحبه من منافع ، واستغنائه عن النثر وحاجة النثر إليه فقال : « وإذا تتبعت جوائز الشعراء وجدتها خارجة عن الحصر ... وإذا تتبعت هذه الحال لأصحاب النثر لم تجد شيئا من ذلك . والناس يقولون : ما أكمل هذا البليغ لو قرض الشعر ، ولا يقولون : ما أشعر هذا الشاعر لو قدر على النثر . هذا لغنى الناظم عن الناثر ، وفقر الناثر إلى الناظم »[٧٦] .

وقد ظلت هذه الحجج تدور في معظم كتب الأدب والنقد بعد القرن الرابع ، فلا نكاد نقع فيها على جديد سوى التشعيب والتفريع والتوليد ، ولم يدع فيها صاحب العمدة زيادة لمستزيد ، إذ كان من أكبر أنصار الشعر ومفضليه ، فجعل الباب الأول من كتابه في « فضل الشعر » وأتي فيه على دحض حجج أنصار النثر وتفنيدها دون أن تخلوا آراؤه حولها من آثار العصبية أو الجدل الذي لا يمس جوهر الشعر أو النثر إلا عارضا ، كقوله : « ولعل بعض المنتصرين للنثر ، الطاعنين على الشعر يحتج بأن القرآن منثور . فكما أن القرآن أعجز الشعراء ، وليس بشعر ، فكذلك أعجز الخطباء وليس بخطبة ، والمترسلين وليس بترسل ... واحتج بعضهم بأن الشعراء يخدمون الكتاب ولا تجد كاتبا يخدم شاعرا ... وإنما ذلك لأن الشاعر واثق بنفسه ، مدل بما عنده على الكاتب والملك ... ومن فضل الشعر أن الشاعر يخاطب الملك بالكاف ، والكاتب لا يفعل ذلك ... وأن الكذب الذي أجمع الناس على قبحة حسن فيه ... وأن الاشعار معايير الأوتار »[٧٧] . ومن الملاحظ أن ابن رشيق قد أختار من حجج أنصار النثر ما

يسهل عليه هدمها ونقضها ، وأن كان في كثير منها ما يربو في أهميته على ما ذكر ، ويدل على شئ من العمق والنفاذ والشمول كما سيتضح بعد قليل .

أنصار النثر وحججهم :

تختلف حجج أنصار النثر وآراؤهم عن سابقيهم من أنصار الشعر ومفضليه اختلافا بينا ، لاختلاف الموضوع من ناحية ، الأصول الفكرية والثقافية التي يستند إليها أنصار النثر ويستمدون منها حججم ومقاييسهم في تفضيله من ناحية أخرى ، إذ كان معظمهم من المشتغلين بالفلسفة والمنطق والكلام والأدب ، فجاءت آراؤهم ملونة بألوان هذه الثقافات وآثارها ، وتلك ملاحظة هامة ودقيقة ، وليست مقتصرة على هذه المسألة فحسب ، وإنما تتعداها إلى نقد النثر عموما ، كما سنلاحظ في أثناء تناولنا اتجاهاته وقضاياه بالدراسة .

وكنا قبل قليل قد ذكرنا أن أبا حيان التوحيدي عرض مسألة المفاضلة بين الشعر والنثر على عدد من شيوخه ومعاصريه ، ونقل إلينا آراءهم فيها ، وأتينا على تحليل آراء مفضلي الشعر منهم وأنصاره ، وكان جلهم من الشعراء كما لاحظنا ، على حين كان معظم أنصار النثر منهم من أهل الجدل والكلام أو الأدب والكتابة من أمثال : أبي سليمان المنطقي وعيسى الوزير وأبي عابد الكرخي وابن ثوابة والجريري وغيرهم .

أما شيخ التوحيدي أبو سليمان المنطقي (نحو ٣٨٠هـ) فقد بدا حائرا ومترددا في هذه المسألة بين موقفين : أحدهما فني نقدي مبرأ من آثار الجدل والمنطق ، يعتمد الجودة مقياسا للمفاضلة بين الأنواع الأدبية ، بغض النظر عن جنسها وقالبها الفني إذ يقول : « الكلام ينبعث في أول مباديه إما عفوا البديهة ، وأما عن كد الروية ، وأما أن يكون مركبا منهما ... فإن خلص المركب من شوائب التكلف ، وشوائن التعسف ، كان بليغا رائعا حلوا ، تحتضنه الصدور ، وتختلسه الآذان ... والتفاضل الواقع بين البلغاء في النظم والنثر إنما هو في هذا المركب الذي يسمى تأليفا ورصفا »(٧٨) . وعلى أساس هذا المقياس الفني لا يكون هنالك مجال للتفاضل بين الشعر والنثر من حيث الجنس أو النوع، فلكل منهما ما يزينه أو يشينه بحسب اشتماله على عناصر الجودة والإتقان والتعبير وفي ذلك يقول : « والعبارة تتركب بين وزن هو النظم للشعر ، وبين وزن هو سياقة النثر ، وكل هذا راجع إلى نسبة صحيحة أو فاسدة ، وصورة حسناء أو قبيحة، وتأليف مقبول أو ممجوج ، وذوق حلو أو مر ، وطريق سهل أو وعر ... فإذا كان الأمر

في هذه الحال على ما وصفناه ، فللنثر فضيلته التي لا تنكر ، وللنظم شرفه الذي لايجحد ولا يستر ، لأن مناقب النثر في مقابلة مناقب النظم ، ومثالب النظم في مقابلة مثالب النثر ، والذي لابد منه فيهما السلامة والدقة وتجنب العويص وما يحتاج إلى التأويل والتخليص[٧٩] . بيد أننا ـ مع ذلك كله ـ نراه يفضل النثر عن الشعر حين يقف من المفاضلة بينهما موقفا فلسفيا يعتمد فيه على النظر في جوهر هذا الفن أو ذاك ، فيجد في مفهوم الوحدة العضوية مقياسا ودليلا على فضل النثر وتقدمه فيقول : «والنثر أشرف جوهرا ، والنظم أشرف عرضا ... ولأن الوحدة في النثر أكثر ، والنثر إلى الوحدة أقرب ، فمرتبة النظم دون مرتبة النثر ، لأن الواحد أول ، والتابع له ثان »[٨٠] .

واستأثر مفهوم الوحدة باهتمام هؤلاء المتكلمين ، فاتخذ منها أبو عابد الكرخي حجة أساسية في تفضيل النثر دون أن يقتصر على دلالتها النقدية فحسب ، وأنما تجاوز ذلك إلى تعميق هذه الدلالة ، والنظر إليها بمنظار فلسفي واسع وعميق ، وأضاف إليها حججا عقلية وجدلية ودينية وفنية أخرى تدعو إلى تفضيل النثر فقال : « النثر أصل الكلام ، والنظم فرعه والأصل أشرف من الفرع ، والفرع أنقص من الأصل ... ومن شرفه أيضا أن الكتب القديمة والحديثة النازلة من السماء على ألسنة الرسل مع اختلاف اللغات كلها منثورة ... ومن شرفه أن الوحدة فيه أظهر ، وأثرها فيه أشهر ، والتكلف عنه أبعد وهو إلى الصفاء أقرب ، ولا توجد الوحدة غالبة على شئ إلا كان ذلك دليلا على حسن ذلك الشئ ... وكما أنه إلهي بالوحدة ، كذلك هو طبيعي بالبدأة ، والبدأة بالطبيعيات وحدة ، كما أن الوحدة في الالهيات بدأة . قال أبو حيان : وهذا كلام خطير . وقال أبو عابد : ومن شرف النثر أيضا أنه مبرأ من التكلف ، منزه عن الضرورة ، غني عن الاعتذار والافتقار والتقديم والتأخير والحذف والتكرير ، وما هو أكثر من هذا مما هو مدون في كتب القوافي والعروض »[٨١] فجعل الوزن والقافية ـ وهما حجة أنصار الشعر الأساسية في تفضيله ـ قيدا يحد من قدرة المبدع على التعبير ، ويدعوه إلى التكلف والتقديم والتأخير وإرتكاب الضرائر ، وذلك ما يبرأ منه النثر ويتنزه عنه .

وحاول عيسى الوزير تعليل هذه الظاهرة الأسلوبية وتفسيرها بربطها بأصول هذا الفن أو ذاك ، ومدى صلته بالعقل والتفكير ، أو الحس والفطرة فقال : « والنثر من قبل العقل ، والنظم من قبل الحس ، ولدخول النظم في طي الحس دخلت عليه الآفة ، وغلبت عليه الضرورة واحتيج إلى الأغضاء عما لا يجوز مثله في الأصل الذي هو النثر »[٨٢]

متابعا في ذلك صاحبه الكرخي حين عد النثر أصلا يدل على فضله وكرم عنصره ، والأصل عند أهل الجدل والكلام أبدا أشرف من الفرع .

ومن الملاحظ أن أنصار النثر كثيراً ما يستندون إلى الدين ، فيستمدون منه بعض الحجج في تفضيله كما هو واضح في قول أبي عابد الذي ذكرناه ، إذ اتخذ من الكتب السماوية المنثورة دليلا على شرف النثر ، ووجد صاحبه الأنصاري في كلام النبي صلى الله عليه وسلم وأحاديثه المنثورة دليلا آخر . فقال : « ومن شرف النثر أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينطق إلا به ... وما سلب النظم إلا لهبوطه عن درجة النثر ، ولا نزه عنه إلا لما فيه من النقص، ولو تساويا لنطق بهما ، ولمّا اختلفا خُصّ بأشرفهما الذي هو أجول في جميع المواضيع ، وأجلب لكل ما يطلب من المنافع »[٨٣] وفي ذلك إشارة واضحة إلى قدرة النثر على الوفاء بحاجات الناس والتعبير عن سائر الأغراض ، ومما لاشك فيه . أن لتطور النثر وفنونه ، وما تحقق لأصحابه وكتابه من فوائد ومنافع أثرا في هذه الآراء النقدية .

وكانت الحاجة إلى الكتاب والمترسلين والخطباء في هذا العصر قد أدت إلى رفع مراتبهم وعلو أقدارهم ، واجزال عطاياهم مما أسهم في تعزيز مكانة النثر ، وتفضيله على الشعر ، إذ وجد في ذلك أنصاره حجة أخرى تضاف إلى حججهم السابقة ، وتدحض أقوال أنصار الشعر حول ما يعود به على صاحبه من منافع وجوائز ، وفي ذلك يقول ابن ثوابة[٨٤] (٣٤٩هـ) : « لوتصفحنا [ما صار الي] أصحاب النثر من كتاب البلاغة والخطباء الذين ذبوا عن الدولة ... لكان يوفي على كل ما صار إلى جميع من قال الشعر ، ولاك القصيد ... ومن أين يفتخر بالقريض وزير الخليفة وصاحب السر ... ومتى كانت الحاجة إلى الشعراء كالحاجة إلى الوزراء ، ومتى قام وزير لشاعر للخدمة أو للتكرمة . وكان ابن ثوابة إذا جال في هذه الأكناف لا يلحق شاؤه ... وله مناظرات واسعة في هذا الباب مع جماعة من أهل زمانه »[٨٥] وفي ذلك دلالة على ماكان لهذه المسألة من أصداء واسعة في بيئات الأدباء والنقاد في ذلك العصر .

وتختلف حجج هذه الطبقة من الأدباء والكتاب عن سابقيهم من العلماء والمتكلمين من حيث عمقها وشمولها ، إذ كثيرا ما نجدها تعتمد على الصياغة الإنشائية التي لاطائل تحتها ، ومن ذلك قول ابن طرار الجريري (٣٩٠هـ)[٨٦] : « النثر كالحرة ، والنظم كالأمة ، والأمة قد تكون أحسن وجها ، وأدمث شمائل ، وأحلى حركات ، إلا

أنها لا توصف بكرم جوهر الحرة ، ولا بشرف عرقها ، وعتق نفسها ، وفضل حيائها . وقال : ولشرف النثر قال تعالى : ﴿ إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا ﴾[٨٧] ولم يقل : منظوما ، ونجوم السماء منتشرة ، وأن كان إنتشارها على نظام ، إلا أن نظامها في جد العقل وإنتشارها في حد الحس[٨٨] فليس في هذا الكلام شيء أبعد من حسن الصياغة والتشبيه على الرغم من اشتماله على بعض الحجج في تفضيل النثر ، الذي شبهه بالحرة، على الشعر الذي يشبه الأمة ، أشارة منه إلى ما يخضع له الشعر من قيود النظم والتأليف التي تحرر منها النثر ، وذلك ما نجده في قول أحمد بن محمد[٨٩] كاتب ركن الدولة : « الكلام المنثور أشبه بالوشي والمنظوم أشبه بالنير المخطط ، والوشي يروق مالا يروق غيره »[٩٠] .

ولعل من الغريب أن نجد ناقدا مع ألمع نقاد الشعر في القرنين الرابع والخامس كالمرزوقي (٤٢١هـ) . يقف في صف أنصار النثر ، ويحتج لذلك بحجج عديدة في مقدمته النقدية التي صدر بها شرحه للحماسة ، وعرض في أثنائها مجمل ما أنتهت إليه آراء النقاد والعلماء قبله في هذه المسألة ومن أبرز هذه الحجج لديه أن أهل الجاهلية قدموا الخطيب على الشاعر ، وأنهم كانوا يترفعون عن انتحال الشعر والشهرة به ، لما عرف به الشعراء من تكسب بالشعر ، وتعرض للسوقة ، وأن القرآن على ما فيه من اعجاز منثور ، وأن مكانة الكتاب في عصره أرفع من مكانة الشعراء ، مما يوجب تفضيل النثر في نظرة إذ يقول « اعلم أن تأخر الشعراء عن رتبة البلغاء موجبة تأخر المنظوم عن رتبة المنثور عند العرب لأمرين : أن ملوكهم قبل الإسلام وبعده كانوا يتبجحون بالخطابة ، ويعدونها أكمل أسباب الرياسة ... ويأنفون من الاشتهار بقرض الشعر ... ،الثاني أنهم اتخذوا الشعر مكسبة ... ومما يدل على أن النثر أشرف : أن الاعجاز من الله ، والتحدي من الرسول وقعا عليه دون النظم »[٩١] .

وإلى ذلك ذهب الثعالبي[٩٢] (٤٢٩هـ) في تفضيله النثر في مقدمة « نثر النظم » محتجا بارتفاع أقدار الكتاب عن مراتب الشعراء ، وحاجة الدول والممالك إلى خدماتهم الجليلة ، وتنزه الأنبياء عن الشعر ، وميل الشعراء إلى المبالغة والكذب في أشعارهم ، وغير ذلك مما لا يمس جوهر الشعر أو النثر إلا عارضا ، فقال : « والنثر أشرف ، وفي طريق الملوك والأكابر أذهب ، وأصحابه أفضل ، ومجالسهم أرفع ... ويحتاجون أن يكونوا ذوي آداب كثيرة ، ومعارف مفتنة ، وقد وسمتهم خدمة الملوك

بشرفها ، وبوأتهم منازل رياستها ... والشعراء إنما أغراضهم وصف الديار والآثار ، وذكر الأوطان ، والحنين إلى الأهواء ، والتشبيب بالنساء ، ثم الطلب والاستجداء ... ولانخفاض منزلة الشعر تصون عنه الأنبياء ، وترفع عنه الملوك »[٩٣] .

وعلى ذلك فقد غدت وظيفة الفن الأدبي ، ومدى الحاجة إليه ، وما يعود به ، على صاحبه من فوائد مقاييس أساسية في تفضيل نوع على آخر كما نجد عند علي بن خلف[٩٤] (بعد ٤٣٧هـ) في قوله : « والكتابة تراس صناعة الخطابة ، والخطابة ترأس صناعة الشعر ... لأن صناعتي الخطابة والشعر ، وإن كانتا متوفرين الحظ من الفعل والشرف ، غير بالغتين مدى صناعة الكتابة ، ولا مجاريتين لها في دوام الحاجة إليها ، وقدر الانتفاع بها ... وذلك أن الخطيب قد يحتاج إليه في الأحيان المتباعدة ، والشاعر انما يحتاج إليه لتزيين المجامع ... وأن اعتبر فضل ما بين هذه الصناعة ، والصناعتين الأخريين من طريق المرفق والجدوى ، ظهر إنه لا نسبة بين ما يحصل عليه الكاتب من الحظ ، وما يحصل عليه الخطيب والشاعر عن طريق البر والصلة[٩٥] .

واعتمادا على هذه المقاييس النفعية فضّل ابن سنان الخفاجي (٤٦٦هـ) النثر فقال : « أن الحاجة إلى صناعة الكتابة ماسة ، والشعر فضل يستغنى عنه ... وأن منزلة الشاعر إذا أزدادت وتسامت لم ينل قدرا عاليا ، والكاتب ينال الوزراة بالكتابة ، وأكثر النظم لا يعبر عن جد ، وأكثر النثر شرح أمور متيقنة ، وما كثر فيه الجد والتحقيق أفضل مما كثر فيه المحال والتقريب » وفي ذلك تعبير واضح عما بلغته صناعة الكتابة ، من بين فنون النثر كلها ، من تطور ، وما آل إليه حال الكتاب من إرتفاع ، مما كان له أكبر الأثر في تفضيل النثر على الشعر ، وتحول المفاضلة بينهما عن مسارها الفني أو النقدي الصافي إلى مسار آخر ليست له صلة قوية بجوهر الأدب أو النقد ، وإن كانت هنالك فئة أخرى من النقاد والأدباء تمثل موقفا فنيا وجماليا خالصا ، وتعبر عن روح النقد الموضوعي السليم ، وتتخذ من المقاييس الفنية أساسا في تفضيل نص أدبي على آخر ، بغضّ النظر عن قالبه الفني أو نوعه .

الموقف الفني والجمالي وأنصاره :

وتعود أصول هذا الموقف النقدي في تفضيل النص الأدبي ، إلى طلائع الآثار النقدية العربية وبواكيرها ، إذ نجد ابن المقفع (١٤٢هـ) يعتمد في تمييز الأدب جيده من رديئه على مقاييس فنيه محدده ، تتجلى فيما يمكن أن يفصح عنه النص الأدبي -

شعره أو نثره ـ من قدرة على الإيجاز والوفاء بحقوق النظم والتأليف ، والمناسبة بين المقام والمقال فيقول : « البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة ... منها ما يكون شعرا ، ومنها ما يكون سجعا وخطبا ورسائل ، فعامة ما يكون من هذه الأبواب ، فالوحي فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة ... واعطاء كل مقام حقه ، والقيام بالذي يجب في سياسة ذلك المقام ، وارضاء من يعرف حقوق الكلام »(٩٧) . وعلى أساس هذه المقاييس الأسلوبية أو البلاغية يمكن أن يتم تفضيل نص أدبي على آخر سواء أكان شعرا أم نثرا ، ما دام يدل على معرفة بأصول صنعة الكلام ، ويعبر عن قدرة على رصفه وتأليفه ، فليس يخرج الأدب ـ في نظر ابن المقفع ـ من أن يكون صنعة من الصنائع الفنية الدقيقة : « فإذا خرج الناس من أن يكون لهم عمل ، وأن يقولوا قولا بديعا ، فليعلم الواصفون المخبرون أن أحدهم ليس زائدا على أن يكون كصاحب فصوص وجد ياقوتا وزبرجدا ومرجانا ، فنظمه قلائد وسموطا وأكاليل ، ووضع كل فص موضعه ، وجمع إلى كل لون شبهه ، مما يزيده بذلك حسنا فسمّي بذلك صائغا رفيقا ، كصاغة الذهب والفضة ، صنعوا منها ما يعجب الناس »(٩٨) .

وقد تأثر الجاحظ (٢٥٥هـ) بهذا المذهب الفني والجمالي ، وعمل على تعميقه وتأصيله ، إذ لانكاد نعثر في آرائه الكثيرة في الشعر والنثر على ما يدل على تفضيل أحدهما على الآخر بنوعه ، وإنما نراه ينظر إليهما بمقياس فني وجمالي واحد ، يعتمد حسن الصياغة ، وجودة التأليف ، واتساق النظم ، وروعة التعبير مقياسا لذلك فيقول : « إن المعنى إذا اكتسى لفظا حسنا ، وأعاره البليغ مخرجا سهلا ، ومنحها لمتكلم دلاً متعشاقا ، صار في قلبك أحلى ، ولصدرك أملا ، فالمعاني إذا كسيت الألفاظ الكريمة ، وألبست الأوصاف الرفيعة ، تحولت في العيون عن مقادير صورها ، وأربت على حقائق أقدارها ، بقدر ما زينت ، وحسب ما زخرفت »(٩٩) . وأحسن الكلام عنده ما جاد لفظه ، وشرف معناه ، ومال إلى الإيجاز والاختصار وفي ذلك يقول : « وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه ... فإذا كان المعنى شريفا ، واللفظ بليغاً ، وكان صحيح الطبع ، بعيدا عن الاستكراه ، منزها عن الاختلال ، مصونا عن التكلف صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة »(١٠٠) . وفي ذلك ما يفسر اهتمامه النقدي في كتبه ورسائله الكثيرة بالشعر والنثر معا ، وعدم اقتصاره على أحدهما فيها ، واعجابه الشديد بمن يجمع بينهما من الأدباء كقوله : « ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن

: كلثوم بن عمرو العتابي (٢٠٨هـ) ... ومن الخطباء الشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار والكتب المخلدة والسير الحسان المدونة والأخبار المولدة : سهل بن هارون »[١٠١] (٢١٥هـ) ، وإن كان ابن هارون نفسه يرى أن « اللسان الجيد والشعر لا يكاد أن يجتمعان في أحد ، وأعسر من ذلك أن تجتمع بلاغة القلم وبلاغة الشعر »[١٠٢] . وعلل ذلك القاضي عبد الجبار (٤١٥هـ) في قوله « إن العلم الذي يمكن معه نظم الشعر ، غير العلم الذي معه يمكن النثر ، فلذلك اختلفا »[١٠٣] .

ومع ذلك فإن هذه الظاهرة الإبداعية قد اتسع مداها في العصر العباسي خاصة ، فترددت أصداؤها في كثير من كتب الأدب والنقد ، ومن ذلك ما نقع عليه في صدور تراجم الأغاني ، إذ يبدأ أبو الفرج أخبار أبي شراعة البصري بقوله إنه : « من شعراء الدولة العباسية ... ،كان فصيحا يتعاطى الرسائل والخطب مع شعره[١٠٤] ويقول في أول أخبار العطوي : « محمد بن عبد الرحمن بن أبي عطية ... وكان شاعرا كاتبا من شعراء الدولة العباسية[١٠٥] كما يقول في صدر أخبار الحسن بن وهب إنه : « كاتب شاعر مترسل فصيح أديب[١٠٦] . ويرتبط إنتشار هذه الظاهرة ـ على ما يبدو ـ بتطور الشعر والنثر في هذا العصر الذي مال فيه أولهما نحو السهولة والبساطة ، وارتقى الثاني إلى درجة عالية من الصنعة والزخرف والتعقيد ، فجنح معظم أدباء العصر إلى الجمع بينهما ، وتباروا في التجويد فيهما معا[١٠٧] ، ووصل الأمر ببعضهم أن جعل كل سطر من سطور رسائله مشطورا شطرين أولهما نثر والثاني شعر كما فعل الهمذاني[١٠٨] مما سوغ لبعض الدارسين القول إنه لم يعد في هذا العصر نثر خالص النثرية[١٠٩] .

وأسهم هذا التطور الأدبي في تقريب المسافة بين الشعر والنثر ، والنظر إليهما بمنظار نقدي واحد ، فعمد كثير من النقاد والبلاغيين إلى وضع بعض القواعد الكلية التي تصلح للفنين معا ، فنجد ابن طباطبا العلوي (٣٢٢هـ) يدعو الشاعر إلى أن « يسلك منهاج أصحاب الرسائل في بلاغتهم وتصرفاتهم في مكاتباتهم ، فإن للشعر فصولا كفصول الرسائل[١١٠] ، ودعا اسحق بن وهب (نحو ٣٥٠هـ) الخطباء والكتاب إلى السير على هدى القواعد التي رسمها في محاسن الشعر ومعايبه فقال : « وقد ذكرنا المطالب التي يصير بها الشعر حسنا ، وبالجودة موصوفا ، فاستعمله في الخطابة والترسل ، وكل ما قلناه من معائب فتجنبه »[١١١] . وكان قبل ذلك قد قسم الكلام

إلى أنواعه المعروفة ، وقال : « وفي الشعر والنثر جميعا تقع البلاغة »(١١٢) ، وعلى ذلك نجد القاضي الجرجاني (٣٩٥هـ) يتحدث عن بعض القواعد النقدية والبلاغية التي تمس صنعة الشعر ، ثم لا يجد في نفسه حرجا من لفت النظر إلى صلاحيتها للتطبيق في مجال الكتابة والنثر عامة فيقول : « وليس ما رسمته لك في هذا الباب بمقصور على الشعر دون الكتابة ، ولا مختص بالنظم دون النثر(١١٣) وجرى كثير من المتأخرين بريح من سبقهم ، إذ نجد ابن سنان الخفاجي (٤٦٦هـ) يأخذ على أبي إسحاق الصابي (٣٨٤هـ) تفريقه بين الشعر والنثر في بعض شرائط الفصاحة والبلاغة فيقول : « ومن شروط الفصاحة والبلاغة أن يكون معنى الكلام واضحا ... سواء كان منظوما أو منثورا . وقد غلط أبو إسحق الصابي في هذا الموضع فزعم أن الحسن من الشعر ما أعطاك معناه بعد مطاولة ومماطلة ، والحسن من النثر ما سبق معناه لفظه ... ففرق بين النظم والنثر في هذا الحكم ، ولا فرق بينهما ولا شبهة في ذلك(١١٤) وتابعه في ذلك ابن الأثير (٦٣٧هـ) بعد زمن غير قصير ، فرد على الصابي ، في تفرقته بين الكتابة والشعر من حيث اختصاص كل نوع منهما ببعض الأغراض ، ورأى أن لا فرق بينهما في ذلك ولا تمييز(١١٥) ، وفي ذلك كله دلالة على تأثر النقد بحركة الأدب ، وتجاوبه معها ، ومحاولة النقاد تقريب المسافة بين الشعر والنثر في مقاييس النقد وميادينه ، بعد أن تم هذا التقارب فعلا في ميادين الأدب وكان لذلك كله أثره الواضح في مسألة المفاضلة بين الشعر والنثر .

وكنا قد أشرنا من قبل إلى إهتمام أبي حيان الواسع بهذه المسألة التي خصها بليلة من ليالي الإمتاع والمؤانسة ، بدأها على عادته بقول الوزير ابن سعدان(١١٦) (٣٧٥هـ) « أحب أن أسمع كلاما في مراتب النظم والنثر ، وإلى أي حد ينتهيان ، وعلى أي شكل يتفقان ، وأيهما أجمع للفائدة ، وأرجع بالعائدة ، وأدخل في الصناعة ، وأولى بالبراعة؟ فكان الجواب : إن الكلام على الكلام صعب ... وقد قال الناس في هذين الفنين ضروبا من القول لم يبعدوا فيها عن الوصف الحسن ، والإنصاف المحمود ، والتنافس المقبول ، إلاّ ما خالطه من التعصب(١١٧) وعرض تلك الأقوال عرضا وافيا وانتهى إلى تحديد موقفه النقدي من هذه المسألة التي أختلفوا فيها فقال : « وفي الجملة فإن أحسن الكلام ما رق لفظه ، ولطف معناه ، تلألأ رونقه ، وقامت صورته بين نظم كأنه نثر ، ونثر كأنه نظم ، يطمع مشهوده بالسمع ، ويمتنع مقصوده على الطبع ، حتى إذا رامه مريغ حلّق، وإذا حلق أسف ، أعني يبعد على المحاول بعنف ، ويقرب على

المتناول بلطف(١١٨) ، فعبر بذلك عما آلت إليه حال هذين الفنين في عصره من تقارب وتشاكل ، وما لحق النثر فيه خاصة من ضروب الإبداع والافتنان، حتى كاد يقارب الشعر في نظمه وإيقاعه ، فأطمع مشهوده بالسمع ، شأنه في ذلك شأن الشعر الذي رقت حواشيه ، ولطفت معانيه ، وصار أحسنه ما شاكله النثر وشابهه ، وليس في مقاييس أبي حيان مجال للمفاضلة بينهما من حيث النوع إذ هما في نظره صورتان من صور الكلام الفني الجميل ، وليس يفضل أحدهما الآخر إلا بقدر ما يفصح عنه من صحة المعنى ، وجودة التعبير عنه ، وفي ذلك يقول : « والشعر كلام وإن كان من قبيل النظم، كما أن الخطبة كلام وإن كان من قبيل النثر ، والانتظام والإنتشار صورتان للكلام في السمع ، وليس الصواب مقصورا على النثر دون النظم ، ولا الحق مقبولا بالنظم دون النثر(١١٩) .

واعتمد أصحاب الإعجاز على الفصاحة والبلاغة مقياسا أساسيا للمفاضلة بين القرآن وغيره من فنون القول ، بغض النظر عن النوع أو طريقة النظم والتأليف ، فرسموا لذلك قواعد محددة يمكن أن تطبق على الشعر والنثر اعتمادا على مقاييس هذا العلم الكلي الذي أصبح يعرف بعلم البلاغة ، وكان المسألة إعجاز القرآن ، والموازنة بينه وبين الأنواع الأدبية الأخرى ، الدور الأكبر في نشأته وتطوره .

وكان الجاحظ (٢٥٥هـ) من أوائل النقاد الذين اعتمدوا المقاييس البلاغية أساسا في نقد الشعر والنثر ، أو المفاضلة بينهما ، ووجد فيها القواعد للموازنة بين القرآن وغيره من الأنواع الأدبية المعروفة قصد إثبات إعجازه وفي ذلك يقول : « فأما معرفة صحيح الكلام من سقيمه ... وفرق ما بين نظم القرآن وتأليفه ، فليس يعرف حتى تعرف القصيد من الرجز ، والمخمس من الأسجاع ، والمزاوج من المنثور ، والخطب من الرسائل ... فأذا عرف صنوف التأليف ، عرف مباينة القرآن عن مثله(١٢٠) . بيد أننا مع ذلك لا نكاد نقف في كتبه الكثيرة ورسائله التي وصلت إلينا على شيء ذي بال في مجال المفاضلة بين الشعر والنثر ، أو بين القرآن وفنون القول ، وإن كنا نعتقد أنه ضمّن كتابه المفقود في « نظم القرآن » كثيرا منها ، كما تدل على ذلك بعض أحاديثه عن هذا الكتاب(١٢١) .

على أن ما وصل إلينا من كتب الإعجاز يدل على اهتمام أصحابها الواسع بهذه المسألة التي خصها القاضي عبد الجبار (٤١٥هـ) في المغني بفصل مفرد عنوانه :«من

بيان الفصاحة التي فيها يفضل بعض الكلام على بعض » وبدأه بقول أبي هاشم الجبائي[١٢٢] (٣٢١هـ) في البيان عن معنى الفصاحة وشرائطها التي يمكن أن يتم التفاضيل بين أنواع الكلام على أساسها : « إنما يكون الكلام فصيحا لجزالة لفظه ، وحسن معناه ، ولا بد من اعتبار الأمرين ... وليس فصاحة الكلام أن يكون له نظم مخصوص ، لأن الخطيب عندهم قد يكون أفصح من الشاعر ، والنظم مختلف . إذا أريد بالنظم إختلاف الطريقة »[١٢٣] ولهذا القول أهمية كبرى في علاقة اللفظ بالمعنى ، إضافة إلى أهميته في إرساء قواعد المفاضلة بين الشعر والنثر على أسس فنية وبلاغية تستمد من مفهوم الفصاحة معيارا لهذه المفاضلة ، وعلى ذلك يمكن للنثر ـ أو نوع محدد منه ـ أن يفضل الشعر ، دون أن يكون للنوع أو لطريقة النظم والتأليف دور في ذلك .

وتابع القاضي عبد الجبار شيخه الجبائي فيما ذهب إليه ، فجعل للفصاحة مراتب ونهايات ، يمكن لأنواع الكلام أن تتفاضل على أساسها ، دونما تمييز بين نوع وآخر ، فسائرها مما تقع فيه الفصاحة ، فقال : « إن للكلام الفصيح مراتب ونهايات ، وإن جملة الكلام ، وأن كانت محصورة ، وتأليفها يقع على طرائق مختلفة ، فتختلف مراتبه في الفصاحة ، فيجب ألاّ يمتنع أن يقع فيه التفاضل ، وتبين بعض مراتبه من بعض »[١٢٤] وعلي ذلك وجدناه يرد قول المعترض القائل : « إن من يتمكن من الشعر ، يتبين عمن لايتمكن منه ، وأن كان فصيحا في نثر الكلام »[١٢٥] إذ لا مجال لمثل هذا الرأي عند أصحاب هذا الاتجاه الفني الذي يتخذ من الفصاحة والبلاغة معيارا للمفاضلة بين أنواع الكلام .

واتخذ القاضي الباقلاني (٤٠٣هـ) من حسن البيان معيارا لهذه المفاضلات فقال: « يقع التفاضل في البيان ... وهو علي مراتب ... والقرآن أعلى منازل البيان ، وأعلى مراتبه »[١٢٦] . ولإثبات صحة هذا الكلام بدأ يدفع رأي من يرى في الشعر فنا يفضل سائر أنواع الكلام فيجب الاقتصار عليه في أثناء الموازنة بين القرآن وغيره فقال في الرد عليه : «فإن خيل إليك ... أنه يحتاج أن يوازي بين نظم الشعر والقرآن ، لأن الشعر أفصح من الخطب ، وأبرع من الرسائل ، وأدق مسلكا من جميع أصناف المحاورات ، ولذلك قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم هو شاعر وساحر ، وسّول إليك الشيطان أن الشعر أبلغ وأعجب وأرق وأبرع ، وأحسن الكلام وأبدع ، فهذا فصل فيه نظر بين المتكلمين ، وكلام بين المحققين[١٢٧] وأورد لنا صورة من صور الخلاف بين

النقاد حول المفاضلة بين الشعر والنثر فقال : « وسمعت أفضل من رأيت من أهل العلم والأدب والحذاق بهذه الصناعة يقول : إن الكلام المنثور يتأتي فيه من الفصاحة والبلاغة مالا يتأتي في الشعر لأن الشعر يضيق نطاق الكلام ... وحضره من يتقدم في صنعة الكلام ، فراجعه في ذلك ، وذكر أنه لا يمتنع أن يكون الشعر أبلغ إذا صادف شروط الفصاحة ، وأبدع إذا تضمن أسباب البلاغة [قال الجرجاني]: « ويشهد للقول الأخير عندي أن معظم براعة كلام العرب في الشعر ، ولا تجد في منثور قولهم ما تجد في منظومه ، وأن كان قد أحدثت البراعة في الرسائل على حد لم يعهد في سالف أيام العرب ، ولم ينقل في دووانيهم وأخبارهم[١٢٨] مشيرا بذلك إلى ما طرأ على بعض فنون النثر الأدبي في عصره من تطور وتجديد ، وما رافقه من تطور في الموقف النقدي إزاء المفاضلة بين الشعر والنثر ، وإنقسام النقاد في ذلك إلى فريقين ، يجد أولهما في النثر فناً أقدر على التعبير عن المعاني والأفكار والمشاعر من الشعر ، لتحرره من قيود النظم التي تكبل الشعر ، وتحد من قدرته على الوفاء بحقوق الكلام ، ويرى الثاني في الشعر مثلا أعلى في الفصاحة والبلاغة إذا استوفى شرائطها ، وبدا الباقلاني ميالا إلى هذا الرأي الأخير ، وأن كانت التطورات الأدبية في زمانه تدل على فضل النثر وتقدمه ، وفي ذلك ما يدعو إلى تقليب النظر النقدي في ضوء المتغيرات الجديدة في حركة الأدب. ثم أفرد بعد ذلك صفحات طويلة للموازنة بين القرآن وبعض القصائد المشهورة أو الخطب[١٢٩] ، ليصل إلى تفضيله عليها ، اعتمادا علي المقاييس البلاغية التي جعلها أساسا لتلك الموازنات والمفاضلات ، وفصّل القول في شعبها وفروعها وأنواعها .

ولم يخرج الرماني (٣٨٦هـ) على هذه القواعد البلاغية والمعايير الفنية في تفضيل القرآن على سائر فنون القول المعروفة عند العرب، فبدأ رسالته بتعريف البلاغة والكشف عن غايتها التي تتجلى في : « إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ »[١٣٠] ، وقسمها إلى عشرة فنون ، وقام بالموازنة بين القرآن وغيره من الشعر والنثر في كل فن بلاغي منها ، ووصل من ذلك إلى القول أن القرآن « قد نقض العادة التي كانت جارية في أنواع الكلام ، ومنها الشعر ومنها السجع ومنها الخطب ومنها الرسائل ... فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة ، لها منزلة في الحسن تفوق كل طريقة »[١٣١] وجعل الشعر أعلى هذه الطرائق مرتبة بما خص به من وزن وإيقاع هو مصدر الجمال فيه ، ليرتب على ذلك أن الاتيان بكلام فني معجب ومؤثر دون أن يكون موزونا يعني أنه أفضل من الشعر في سلم البيان والنقد منزلة ، وفي ذلك يكمن سر من

أسرار اعجاز القرآن ، وتفوقه على الشعر وغيره من أنواع الكلام الأخرى عند الباقلاني إذ يقول : « ولولا أن الوزن يحسن الشعر لنقصت منزلته في الحسن نقصانا عظيما ... ولذلك فمن جاء بغير الوزن المعروف في الطباع الذي من شأنه أن يحسن الكلام ، بما يفوق الموزون ، فهو معجز »(١٣٢) . ويترتب على ذلك - كما هو واضح - تفوق بعض نصوص النثر البديعة على الشعر ، وتفضيلها عليه ، كما يترتب عليه أن يقع الإعجاز في بعض فنون القول ، قياسا إلى بعضها الآخر مما سوغ لليزدادي(١٣٣) نعت بعض رسائل قابوس بن وشكمير(١٣٤) (٤٠٣هـ) وأقواله بالإعجاز أو الكلام المعجز كقوله في التعليق على بعض كلامه : « وهذا إبداع وأي إبداع ، واعجاز وأي اعجاز »(١٣٥) أو قوله : « وهذا كلام عظيم الشأن جليل الخطر شريف معجز »(١٣٦) . وأن كنا نجد في ذلك شيئا من المبالغة ، ونفضل أن يظل هذا الوصف مقترنا بالقرآن الكريم وحده ، لما فيه من دلالة على عظيم قدره ، وبديع نظمه وتأليفه .

وحين آراد الخطابي (٣٨٨هـ) موازنة القرآن بغيره من فنون القول بدأ بارساء بعض القواعد التي يمكن الإعتماد عليها في الموازنة بين أنواع الكلام ، وتفضيل بعضها على بعض فقال : « وسبيل من عارض صاحبه في خطبه أو شعر أن ينشيء له كلاما جديداً ، ويحدث له معاني بديعا ، فيجاربه في لفظه ، ويباريه في معناه ، ليوازن بين الكلامين ، فيحكم بالفلج لمن أبر منهما على صاحبه »(١٣٧) مؤكداً بذلك أن المفاضلة ينبغي أن تظل محصورة في نطاق النوع الأدبي نفسه فحسب ، ولذلك فقد أختار أن يوازن القرآن الكريم بأقوال المتنبئين وأسجاعهم التي ادعوا فيها معارضة القرآن ، أو زعموا إنها أنزلت عليهم ، فكشف عن تهافتها أمام آياته ، وانتهى إلى أن اعجاز هذا القرآن ينبغي أن يطلب من ذاته فحسب ، ويستقصى من جهة نفسه(١٣٨) وتلك نظرة نقدية موضوعية سليمة ومتقدمة ، تتجاوز آراء كثير من النقاد العرب في مسألة المفاضلة بين الأنواع الأدبية ، إذ تكفل للنوع الأدبي قسطا وافرا من التميز والإستقلال بخصائصه الذاتية وصفاته ، وتجعل من العسير النظر إليه خارج نوعه > والمفاضلة بينه وبين غيره من أنواع الكلام .

وقد لاحظنا من خلال عرضنا لآراء هؤلاء النقاد في مسألة المفاضلة بين الشعر والنثر ، أنهم انقسموا في ذلك ثلاث فرق ، يمثل كل منها موقفا معينا منها ، ويحتج بحجج تتفاوت في طبيعتها وأصولها الثقافية ، وتختلف في عمقها وسطحيتها ،

فكانت حجج أنصار الشعر تدور حول ما خص به من وزن وتقفية تزيد في قوة تأثيره ، وتجعله أسهل علي الحفظ ، وأعلق بالذاكرة ، وأصلح للتلحين والغناء ، وأسير في الآفاق وأدل على الشاهد ، وأبعد من التغير والتحريف ، وأقرب إلى الاختصار والتكثيف ، وأهز لعطف الكريم ، وأوفر حظا في نيل الجوائز والصلات . على حين يرى أنصار النثر في الوزن والقافية قيدا يحد من قدرة الأديب على التعبير عن أفكاره ومشاعره ، واتخذوا من الوحدة الموضوعية التي يفصح عنها النص النثري عادة ، ومدى الحاجة إلى النثر للوفاء بأغراض المجتمع الحضري ، وما يعود به على صاحبه من منافع ومكاسب واختيار الله تعالى له أداة للتعبير في كتبه السماوية ، واقتصار الأنبياء عليه في كلامهم ، حججا في تفضيله على الشعر ، ولم ير فريق ثالث لهذه الحجج والمفاضلات وجها في تقدير الأدب تقديرا سليما ، فلجؤوا إلى المقاييس الفنية والبلاغية يستمدون منها معايير المفاضلة بين نص أدبي وآخر ، دونما تمييز بين الشعر أو النثر ، أو تفضيل أحدهما على الآخر إلا بقدر ما يفصح عنه النص الشعري أو النثري من استيفاء قواعد الفن ، وأساليب الفصاحة والبلاغة ، وتفرد بعض النقاد برأي ذي أهمية نقدية خاصة ذهب فيه إلى أن المفاضلة انما ينبغي أن تظل محصورة في مجال ضيق ومحدود ، يقتصر على النوع الأدبي نفسه فحسب ، وهو الرأي الذي نميل إلى الأخذ به في هذه المسألة التي استأثرت بنصيب وافر من اهتمام النقاد العرب القدماء ، وكان لها دور بارز في إرساء قواعد البلاغة العربية التي بدأ الحديث عنها خافتا منذ القرن الثالث للهجرة ، ووجدت لها في ميدان الدراسات الإعجازية مجالا فسيحا ، قبل أن تستقل عن النقد ، وتصبح علما قائما بذاته ، له رجاله وأعلامه ، وكتبه المدونة وآثاره ، وقواعده المقررة ومصطلحاته كما هو معروف .

الهوامش

(١)محمد بن عبد الغفور الكلاعي الحميري الأندلسي : أديب كاتب ووزير ، برع في الشريعة والآدب ، وألف كتباً كثيرة منها أحكام صنعة الكلام وغيره (نحو ٥٣٤ هـ) ، نفح الطيب ٥/٩٣-٩٤ .

(٢) احكام صنعة الكلام ٣٦ - وانظر صبح الاعشى ٥٨/١ .

(٣) أبو عمرو بن العلاء زيان بن عمار التميمي البصري (٧٠-١٥٤هـ) أئمة اللغة والأدب والرواية . وأحد القراء المشاهير . ولد في مكة عاش في البصرة ومات في الكوفة . الفهرست ٣٠ .والوفيات ٣/٤٦٦-٤٧٠ ، والاعلام ٣/٤١.

(٤)البيان والتبين ١/٢٤١ وانظر القول نفسه في العمدة ١/٢٤١ مع اختلاف يسير دون عزو .

(٥)العمدة ١ /١٥٣ .

(٦) البيان والتبين ٤/٨٣ .

(٧)العمدة ١ /١٨٤ .

(٨)المصدر نفسه ١ /١٠٩ - ١١٠ .

(٩) البيان والتبين ١/٣٥١.

(١٠) البيان والتبين ٣/١٦١ وانظر الأمالي ١/٦٩ .

(١١) البيان والتبين ١ / ٣٢ ، ٤٣،٤٥، ،٥٢، ١٨٩، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣٦٥، ٣/٢٦٩ .

(١٢) البيان والتبين ١/٣٦٥ .

(١٣) العقد الفريد ٢/٣ .

(١٤) شرح ديوان الحماسة ١/١٦ .

(١٥) الأحنف بن قيس أبو بحر ، سيد تميم وخطيبها ، أدرك النبي وشهد الفتوح وبه يضرب المثل في الحلم (نحو ٧١هـ) . الوفيات ٢/٤٤٩ وسير أعلام النبلاء ٤/٨٦-٩٧ والأعلام ١/٢٧٦.

(١٦) العقد الفريد ٢/٦٣ وسير أعلام النبلاء ٤/٨٩ .

(١٧) خالد بن صفوان التميمي المنقري . خطيب فصيح من مخضرمي الدولتين (- نحو ١٣٥هـ) . الوفيات ٣/١٢ وسير أعلام النبلاء ٦/٢٢٦ ومعجم الأدباء ١١/٢٤ والأعلام ٢/٢٩٧ .

(١٨) البصائر والذخائر ٢/٥٦٩ .

(١٩) أوس بن حجر بن مالك التميمي شاعر جاهلي معروف (- نحو ٢ هـ) . الأغاني ١١/ ٧٠-٧٤ والأعلام ٢/٣١ .

(٢٠) فضالة بن كلدة الاسيدي : شاعر جاهلي وخطيب ، كان صديقا لأوس بن حجر . البيان والتبين ١/ ٨٠ . ٣/٣١٩ والمؤتلف والمختلف ١٧٣ والأعلام ٥/١٤٦ .

(٢١) البيان والتبين ١/ ١٨٠ وديوان أوس ٢٣ . والطمر : الثوب الخلق ، والطملال : الفقير .

(٢٢) البيان والتبين ١/٤٣ . والمحصب : موضع رمي الأحجار بمنى .

(٢٣) قس بن ساعدة الايادي : حكيم جاهلي وخطيب أدركه النبي قبل النبوة (- نحو ٢٣ ق . هـ).

الاغاني ١٥/٢٤٦ - ١٥١ والبداية والنهاية ٢/٢١٤ والاعلام ٥/١٩٦ . ولقيط بن يعمر الايادي :

شاعر جاهلي فحل من أهل الحيرة . المؤتلف والمختلف ١٧٥ والأغاني ٢٢/٣٥٤- ٣٥٩ والأعلام ٥/٢٤٤ . وزيد بن جندب الادياي : من شعراء الخوارج الأزارقة وخطبائهم ، ينعت بالمنطيق البيان والتبين ١/٤٢، ٤٨ ، ٥٥ . ٢٦٧ ، ٢/١٧٠ والحيوان ٦/٢١٩ والأعلام ٣/٨٧٢ .

(٢٤) تاريخ الآداب العربية ٨١ . وانظر هيورث ٦٦ .

(٢٥) د . م . س ٨ / ٣٨٨ وانظر الحضارة الاسلامية في القرن الرابع ١/٤٢١ وبلاشير ٣/٣٨٧- ٣٩٢ .

(٢٦) الخطابة العربية ٢٠ .

(٢٧) طبقات فحول الشعراء ١/٢٤ .

(٢٨) عبد الله بن قيس الأشعري ، صحابي جليل . ولاه عمر البصرة عام ١٧ هـ . وأقره عثمان عليها توفى ٤٤ هـ الاعلام ٤/١١٤ .

(٢٩) العمدة ١/٨٨ وانظر باب فضل الشعر ١/٧٢ وما بعدها .

(٣٠) العمدة ١/٨٨ .

(٣١) الكامل ٤/٨٤ وانظر الخبر فى الأغاني ٢٠/٢٦٣ مع اختلاف يسير .

(٣٢) جمعة وهند ابنتا الخس بن حابس الايادي : من نساء الجاهلية المشهورات بالفصاحة والحكمة والدهاء والأمثال السائرة . ولثعلب (-٢٩١هـ) كتاب في « تفسير كلام ابنة الخس » ذكره صاحب الفهرست ١٨ وانظر فى أخبارهما : البيان والتبين ١/٥٢ ،٣١٢ - ٣١٣ و ٣٢٤ ، ٤/١٦٢ - ١٦٣ و٣/٣٨ والأمالي ١٩٩٨ ، ٢/٣٥٦-٣٥٧ وعيون الأخبار ٢/٢١٤ وأمثال الميداني ١/٢٥٩ وبلاغات النساء ٥٩-٦٢ والاعلام ٨/٩٧ .

(٣٣) القلمس بن أمية بن عوف الكناني . ويقال إن اسمه جنادة ، والقلمس لقبه ومعناه السيد أو الداهية وهو أحد الخطباء الوعاظ في الجاهلية . الأعلام ٥/٢٠٣ .

(٣٤) بلاغات النساء ٥٩ .

(٣٥) الكميت بن زيد (-١٢٦ هـ) شاعر الهاشميين ، وخطيب بنى أسد ، وفقيه الشيعة في العصر الأموي (٦٠-١٢٦هـ) الأغاني ١٧/١-٤٠ والأعلام ٥/٢٣٢ والبعيث المجاشعي خداش بن بشر بن خالد التميمي (-١٣٤هـ) خطيب وشاعر أموي من أهل البصرة . المؤتلف والمختلف ٥٦ . ١٠٨ الأعلام ٢/٣١٢والطرماح بن حكيم الطائي (-١٢٥هـ) شاعر اسلامي فحل من الخوارج . الاغاني ٢/٣٥ - ٤٥ والاعلام ٣/٢٢٥ .

(٣٦) البيان والتبين ٤/٨٤ .

(٣٧) السيرة النبوية ١/٢٧١ والرسالة الشافية - ثلاث رسائل ١٢٢ وانظر السيرة أيضا ١/٢٩٤ . ٣٠٠ والرسالة الشافية ١٢٣ . ١٢٥.

(٣٨) انظر سورة يس ٣٦/٦٩ والحاقة ٦٩/٤١ والطور ٥٢/٢٩ -٣٠ والصافات ٣٧ /٣٦ والأنبياء ٢١/٥/والفرقان ٢٥/٥ والنحل ٢٧/١٠٣ والشعراء ٢٦/٢٢١-٢٢٧.

(٣٩) سورة الاسراء ٨٨/١٧ .

(٤٠) سورة الشعراء ٢٦/٢٢١- ٢٢٧ وانظر في تفسير هذه الآيات وتوجيهها على الصورة التى أتينا على ايجازها : مجموع فتاوى ابن تيمية ٢/١١٨ - ٩و ٤٣ و ١٣٦ -١٣٧ و٢٩/١٦٣و ٦٥٠ - ٦٥١ واعجاز القرآن ٥١-٥٦ .

(٤١) النثر الفني ١/١٢٩ - ١٣٠ .

(٤٢) الفهرست ٧١/١٥ .

(٤٣) اسحق بن ابراهيم الموصلي (١٥٥-٢٣٥هـ) عالم باللغة والموسيقي والغناء والأدب نادم الرشيد وغيره من خلفاء بني العباس الأغاني ٥/٢٦٨-٤٣٤و ٧/ ١١١ - ١١٦ و٢٠ -٣٤ والأعلام ١/٢٩٢ .

(٤٤) وهي من الرسائل التي وصلت الينا وقام د . رمضان عبد التواب بتحقيقها ونشرها . ويقع متنها في نحو ١٢ صفحة ٨٠-٩٢ من المطبوع .

(٤٥) احمد بن يحي بن زيد المعروف بثعلب إمام الكوفين في اللغة والنحو. ولد ومات ببغداد (- ٢٩١هـ) الوفيات ١/١٠٢ -١٠٤ وانباه الرواة ١ /١٣٨ والأعلام ١/٢٦٧ .

(٤٦) أشار اليها صاحب الفهرست ٢٤ ضمن أخبار أبي محمد عبد العزيز بن الواثق فقال : وله من الكتب : رسالته الى ثعلب يسأله أي البلاغتين أبلغ .. « ولم يشر ابن النديم الى هذه الرسالة في أثناء ترجمته لثعلب ، وسرده لمؤلفاته ص ٨١ . بيد انه ذكر للمبرد « رسالة البلاغة » في أثناء سرده لمؤلفاته ص ٦٥ دون أن يشير الى رسالة من ابن الواثق اليه يسأله أي البلاغتين أبلغ كما ورد في صدر رسالة المبرد التي وصلت الينا ، وذكر محققها في تقديمه لها ص ٧٠ أن « الكتاب رسالة صغيرة يجيب بها المبرد على رسالة بعث بها اليه الخليفة الواثق يسأله : أي البلاغتين أبلغ « وورد في صدر متن الرسالة ص ٨٠ » كتب أحمد بن الواثق الى المبرد : أحب أن أعلم أي البلاغتين أبلغ ... فكتب اليه .. وعلى ذلك نكون أمام شخصين يسألان اي البلاغتين أبلغ ، وهما : أبو محمد عبد العزيز بن الواثق وأحمد بن الواثق ، ومؤلفين بعث اليها هذا الشخصان بذلك السؤال وهما ثعلب الذي بعث اليه أبو محمد بن الواثق بسؤاله ، والمبرد الذي بعث اليه أحمد بن الواثق بالسؤال نفسه، وأمام رسالتين أجاب بالأولى المبرد على سؤال صاحبه أحمد ولاشك أن ثعلبا قد أجاب محمدا برسالة رواها عنه فنسبت اليه دون صاحبها . ومن المرجح أن ابني الواثق قد اختلفا في تفضيل الشعر أو النثر ، فبعث أحدهما إلى ثعلب يسأله رأيه ، وبعث الثاني الى المبرد ، وقد وصلت الينا رسالة المبرد أو جوابه ، ولانعرف عن رسالة ثعلب أو جوابه شيئا . وليس في المقدمة الطويلة لمحقق رسالة المبرد إشارة إلى هذه المسألة .

(٤٧) ذكرها ابو حيان التوحيدي في المقابسات ٢٧٢ المقابسة ٦٥ ولعلها « رسالة الفرق بين المرسل والشاعر التي نشرها د . الهدلق في كتاب النادي الأدبي بجدة رقم ٥٩ - س ٩٨٨ .

(٤٨) ابو اسحاق ابراهيم بن هلال الصابي (- ٣٨٤هـ) أديب مترسل وشاعر تقلد ديوان الرسائل لمعز الدولة البويهي « الوفيات ١/٥٢ - ٥٤ ويتيمة الدهر ٢/٢٤١ -٣١١ ومعجم الأدباء ١/٥٢ .

(٤٩) ذكرها ياقوت في معجم الأدباء ١١/٢٦٣ .

(٥٠) سنان بن ثابت بن قرة الحراني طبيب مشارك في علوم كثيرة من أهل بغداد (-٣٣١ هـ) الفهرست ٣٣٢و ٣٥٩ ومعجم الأدباء ١١/٢٦٣ والأعلام ٣/١٤١ .

(٥١) الفهرست ١٥٣ ومعجم الأدباء ٣/٦٦.

(٥٢) ابو زيد احمد بن سهل البلخي (٢٣٥-٣٢٢هـ) من علماء الاسلام بالشريعة والفلسفة والآداب والسير قصد العراق وأخذ عنه الكندي وغيره ثم عاد الى بلخ وبها توفي . له مؤلفات كثيرة في علوم مختلفة .

(٥٣) ذكرها التوحيدي في المقابسات ٢٤٦ المقابسة ٦٠ في أثناء حديثه عن المفاضلة بين الشعر والنثر فقال : « وقد أخرته لرسالة معدودة في الكلام على الكلام فيها ثمرة هذا بتمامه بشرح تام وعناية بالغة إن ساق الله إلى غايتها « ولسنا نعلم إن كان قد أتمها أم لا .

(٥٤) رسالة البلاغة ٨١ .

(٥٥) تأويل مشكل القرآن ١٧ -١٨ .

(٥٦) أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكري (٢٩٣-٣٨٢هـ) خال أبي هلال العسكري .انتهت اليه الرياسة

في الآداب بخورستان - الوفيات ٢/٨٣-٨٥ ومعجم الأدباء ٨/٢٣٣ -٢٦٧ وانباه الرواة ١/٣١٢ والاعلام ٢/١٩٦ .

(٥٧) المصون ١٥٦ .

(٥٨) أبو علي محمد بن الحسن الحاتمي (٣٢٠-٣٨٨هـ) أديب ناقد بغدادي ، له عدة كتب في نقد شعر المتنبي معجم الادباء ١٨/١٥٤ -١٧٩ الوفيات ٤/٣٦٢ - ٣٦٧ ومقدمة حلبة المحاضرة ١/٢٦ - ١٠١ .

(٥٩) حلية المحاضرة ١/١٣٠ .

(٦٠) المصدر نفسه ١/١٢٢ .

(٦١) المصدر نفسه ١/١٢٥ .

(٦٢) المصدر نفسه ١/١٢٥ .

(٦٣) المصدر نفسه ١/١٢٧ .

(٦٤) المصدر نفسه ١/١٢٦ .

(٦٥) المصدر نفسه ١/١٢٧ .

(٦٦) كتاب الصناعتين ١٤١ - ١٤٢ .

(٦٧) يمكن مراجعة حديث ذ . ذكي مبارك حول هذه التحويلات في النثر الفني ١/١٢٩ -١٣٣ خاصة .

(٦٨) الهوامل والشوامل ٣٠٨ .

(٦٩) المصدر نفسه ٣٠٨ .

(٧٠) الامتاع والمؤانسة ٢/١٣٥ .

(٧١) السلامي محمد بن عبد الله بن محمد المخزومي . من شعراء العراق في الدولة العباسية (٣٣٦-٣٩٤هـ) يتمة الدهر ٢/٣٩٥ - ٣٤٠ والوفيات ٤/٤٠٣ - ٤٠٩ والأعلام ٦/٢٢٦ .

(٧٢) الامتاع والمؤانسة ٢/١٣٣٥ - ١٣٦ .

(٧٣) عبد العزيز بن عمر التميمي المعروف بابن نباته السعدي البغدادي (- ٤٠٥هـ) من شعراء سيف الدولة الحمداني يتمية الدهر ٢/٣٧٩ -٣٩٥ والامتاع والمؤانسة ١/١٣٦ والاعلام ٤/٢٣ .

(٧٤) الامتاع والمؤانسة ٢/١٣٦ .

(٧٥) الحسين بن محمد بن جعفر (- ٤٢٢هـ) شاعر عباسي أصله من الرقة وسكن بغداد يتيمة الدهر ٣/١٢١ و ١٢٨ والامتاع والمؤانسة ١/١٣٦ الاعلام ٢/٢٥٤ .

(٧٦) الامتاع والمؤانسة ٢/١٣٦ -١٣٧ .

(٧٧) العمدة ١/٧٥-٨٤ .

(٧٨) الامتاع والمؤانسة ٢/١٣٢ .

(٧٩) المصدر نفسه ٢/١٣٨ .

(٨٠) المقابسات ٢٦١ المقابسة ٦٥ .

(٨١) الامتاع والمؤانسة ٢/١٣٢-١٣٣ .

(٨٢) ن . م ٢/١٣٤ وقد اقتصر د . احسان عباس من هذا الرأى على قوله : « النثر من قبل العقل ، والنظم من قبل الحسن » فأوله تأويلا لايتفق مع جملة كلامه وحقيقة مقاصده ، فقال أنه : « يكرر بهذا ما قيل حول حظ الشعر من التخييل وحظ الخطابة من الامتاع » . وانظر تاريخ النقد الأدبي ص ٢٣٣ .

(٨٣) الامتاع والمؤانسة ٢/١٣٥ .

(٨٤) أحمد بن محمد بن ثوابة من كتاب الدولة البويهية ولي ديوان الرسائل لمعز الدولة البويهي (-٣٤٩هـ) معجم الأدباء ١ /١٤٤ والأعلام ١ /٢٠٨ .
(٨٥) الامتاع والموانسة ٢ /٣٦ .
(٨٦) المعافى بن زكريا بن يحي الجريري المعروف بابن طرار . فقيه شاعر وأديب مصنف من أهل النهروان (٣٠٣ - ٣٩٠هـ) .الوفيات ٥/٢٢١ -٢٢٤ ومعجم الادباء ١٩ /١٥١ ، والأعلام ٧/ ٣٦٠ .
(٨٧) سورة الانسان ١٩ /٧٦ .
(٨٨) سورة الانسان ١٩ /٧٦ .
(٨٩) هو ابن هند والكاتب . أحمد بن محمد كاتب ركن الدولة البويهي .
(٩٠) الامتاع والمؤانسة ٢/ ١٣٥ .
(٩١) شرح ديوان الحماسة ١ /١٩ .
(٩٢) الثعالبي أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل (٣٥٠ - ٤٢٩ هـ) صاحب اليتيمة . من أئمة الأدب من نيسابور وفيات الأعيان ١٧٨/٣ - ١٨٠ .
(٩٣) رسائل الثعاليي - نثر النظم ٢ -٣ .
(٩٤) علي بن خلف أحد كتاب الانشاء فى الدولة الفاطمية في القرن الرابع . كان ابنه محمد (- ٤٠٧ هـ) وزيرا لبهاء الدولة البويهي فى العراق . توفى على بعد ٤٣٧ هـ . وانظر مقدمة محقق مواد البيان .
(٩٥) مواد البيان ٥٧ - ٥٨ .
(٩٦) سر الفصاحة ٢٧٢ .
(٩٧) البيان والتبيين ١/ ١١٦ .
(٩٨) الأدب الصغير ٣٢-٣٣ ويعد هذا النص من أقدم النصوص النقدية التى تتصل بنظم الكلام وصياغته وتأليفه فى النقد العربى القديم وقد تأثر به الجاحظ ومن أتى بعده من النقاد الذين تحدثوا عن نظرية النظم أو عن علاقة اللفظ بالمعني ورddه بألفاظه تقريبا ، دون أن نجد عند أحد منهم إشارة إليه ، وانظر مثلا الحيوان ١٣٢/٣ وعيار الشعر ٦ و ٣٢ والموازنة ١٧٣ والصناعتين ٥٨ ودلائل الاعجاز ٧١٨ ، ١١٨ ،١٢٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ .
(٩٩) البيان والتبين ١ /٢٥٤ .
(١٠٠) الحيوان ٨٣/١ .
(١٠١) البيان والتبين ١ /٥١ -٥٢ .
(١٠٢) البصائر والذخائر ٢٩١/٤ -٢٩٢ .
(١٠٣) المغني ١٦ / ٢٣٠ .
(١٠٤) الاغاني ٢٢/٢٣ .
(١٠٥) ن . م ٢٣ .١٢٣ .
(١٠٦) ن . م ٣٥/٢٣ .
(١٠٧) انظر مثلا يتيمة الدهر ٢٥٩/٤و٢٦٧و ٢٩٠ ومواضع كثيرة جدا .وانظر أيضا النثر الفني ١٢٨/١ .
(١٠٨) رسائله ١٢٨ وانظرالنثر الفني ٤٢٧/٢و٤٣٤ ويتيمة الدهر ٢٥٩/٤ وبديع الزمان هو أحمد بن الحسين الهمداني (٣٥٨-٣٩٨هـ) صاحب المقامات المشهورة من أئمة الكتاب يتيمة الدهر ٢٥٦/٤ - ٢٠٢ والوفيات ١٢٧/١ - ١٢٩ والأعلام ١١٥/١ .

(١٠٩) المرشد الى فهم أشعار العرب ٧٩٣/٣ وانظر النثر الفني ١/ ١٣٠ و ١٣١و٢ /٣٥٩ .

(١١٠) عيارالشعر ٦ .

(١١١) البرهان فى وجوه البيان ١٩٢/١٥١ .

(١١٢) ن . م ١٢٧ / ١٦٠ .

(١١٣) الوساطة ٢٣-٢٤.

(١١٤) سر الفصاحة ٢٠٩ .

(١١٥) انظر فى مناقشة هذا الرأي تاريخ النقد الأدبي عند العرب ٥٩٣ .

(١١٦) هو الوزير أبو عبد الله الحسن بن العارض وزير صمصام الدولة البويهي فى بلاد فارس (-٣٧٥ هـ). الكامل لابن الأثير ، جـ ٧ ، ١٢٥ - ١٢٦.

(١١٧) الامتاع والمؤانسة ٢/ ١٣٠ .

(١١٨) ن . م ١٤٥/٢ .

(١١٩) أخلاق الوزيرين ٨ .

(١٢٠) كتاب العثمانية ١٦ .

(١٢١) انظر الحيوان ٩/١ و ٨٦/٣ .

(١٢٢) ابو هاشم عبد السلام بن محمد الجبائي (٢٤٧ - ٣٢١هـ) فقيه مفسر ومتكلم من كبار المعتزلة . الفهرست ٢٢٢ وفيات الأعيان ٩٨٣/٣- ٨٤ والأعلام ٧/٤ .

(١٢٣) المغني ١٩٦/١٦ .

(١٢٤) ن .م ١٦ /٢١٤ - ٢١٥ .

(١٢٥) ن . م ١٦ /٢٢٤ .

(١٢٦) إعجاز القرآن ٢٧٤.

(١٢٧) ن . م ١٥٤ .

(١٢٨) ن . م ١٥٥ .

(١٢٩) ن .م ١٢٩ وما بعدها ثم ١٥٦ وما بعدها .

(١٣٠) ن . م ١١١ .

(١٣١) النكت - ثلاث رسائل ٧٥ .

(١٣٢) ن . م ١١١ .

(١٣٣) عبد الرحمن بن علي من معاصري قابوس (- ٤٠٣هـ) وانظر الفن ومذاهبه فى النثر العربى ٢٥٦ .

(١٣٤) أبو المعالي قابوس بن وشير الديلمي من أمراء جرجان وطبرستان وكان فاضلا أديبا شاعرا مترسلا (-٤٠٣هـ) يتمية الدهر ٥٩/٤ - ٦١ والوفيات ٧٩/٤ -٨٢ ومعجم الادباء ٢١٩/١٦ - ٢٣٣ والاعلام ٥/ ١٧٠ .

(١٣٥) كمال البلاغة ٢٧ ونسبه صاحب الكشف ٥٠٩/٢ إلى قابوس بن وشكمير وهو لليزدادي ومنه نسخة خطية فى الظاهرية رقم ٦٧١٣ - أدب - فيها زيادات على المطبوع .

(١٣٦) ن . م ١٢٩ وما بعدها ثم ١٥٦ وما بعدها .

(١٣٧) النكت - ثلاث رسائل ٧٥ .

(١٣٨) ن . م ١١١ .

الإعلام التربوي

نظـــرة مستـقـلـة

د . سعود بن صالح المصيبيح

« الإعلام التربوي ... نظرة مستقلة ... » ووجدت أنني في حيرة حول هذا الموضوع حيث لم تتبلور معالمه بعد ولا تزال هناك العديد من البديات التي تحتاج إلى وقت حتى نصل إلى صيغة حول هذا المفهوم وأبعاده .. لذا فإن كل ما أطرحه سيدخل ضمن المقترحات أو هو محاولة لعرض الواقع الحالي لموضوع التداخل أو التعارض بين الإعلام والتربية وأهداف كل منهما .. ثم إني أهدف إلى طرح التساؤلات التي تساعد على إثاره الأذهان على طريقة العاصفة الذهنية التي تتيح فرصة أكبر للنقاش ثم نتحاور ونتبادل الرأي حول الموضوع الذي قد يكون فيكم من هو أقدر مني علي التحدث عنه .

بداية فهذا الأمر قد تم التفكير فيه منذ سنوات طويلة ... أي تقريباً منذ إنتشار وسائل الإعلام الحديثة كالإذاعة والتلفزيون ودخولها كل بيت تقريباً .. ولكن قد يكون أهم جهد في هذا الميدان وما هو أقرب إلى مجتمعنا وبيئتنا الخليجية هي ندوة « ماذا يريد الإعلاميون من التربويين » والتي عقدها مكتب التربية العربي لدول الخليج في ١٤٠٢/٨/٦هـ الموافق ٢٩ مايو ١٩٨٢م ولمدة ثلاثة أيام وافتتحها صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبد العزيز وزير الداخلية ورئيس المجلس الأعلى للإعلام ، وشارك فيها عدد من وزراء التربية والإعلام في الدول العربية الخليجية وغير الخليجية ونخبة مصطفاة من المهتمين بمحوري التربية والإعلام وأصدر المكتب وقائع الندوة في ثلاثة أجزاء تعد مرجعاً رائعاً لأي بحث أو دراسة أو خلفية حول موضوع الإعلام التربوي وعلاقة التربية والإعلام ...

بقراءات لمحتويات الندوة أرى أن من الأفضل البداية بكلمة صاحب السمو الملكي الأمير نايف في إفتتاح الندوة في العاشر من صباح يوم ١٤٠٢/٨/٦هـ ، والتي تربطنا بالواقع الحالي وكأن سموه يتحدث لنا الأن عن هذا الموضوع الهام ، يقول سموه :

إذا كانت مشاركتي بحواركم هذا اليوم تعبيراً عن ترابط الأشياء وتداخلها في حياة المجتمع ، فإن الحلقة المفقودة بين التربية والإعلام حلقة مهمة يجب أن تطرح بجدية

والحاح وأسلوب علمي واستمرارية ، لأن الإرتباط بين التربية والإعلام ارتباط يكاد يكون تاماً لعلاقتهما بصياغة شخصية الفرد والناس وتكوين مفاهيم شخصية وعناصرها ... لأن لكليهما دوراً مباشراً في توجيه الفرد في الاتجاه المرسوم ... فمن ناحية نجد أن وسائل الإعلام المرئيه والمسموعة والمكتوبة تملك حرية الدخول في حياة الفرد منذ نشأته وفي كافة زوايا حياته الخاصة ، وبالتالي تؤثر تأثيراً ظاهراً على صياغة تفكيره وموقفه من الأمور فإن التربية بخاصة الرسمية أو المدرسية منها ، من ناحية أخرى تقوم بتعليم الفرد سبل الإتصال بالفكر وتمكنه من عبور جسور الجهل إلى العلم ومن ثم تعمل على تنقية القيم والمبادئ التي يقررها المجتمع ... إذن فالعلاقة بين التربية والإعلام علاقة أساسية لا ثانوية ... وفي مجتمعاتنا الخليجية والعربية حيث تشرف الحكومات على وضع مناهج التربية والإعلام وأساليبها وتنفيذها ، نجد أن الموضوع مطروح بصورة مهمة ، لأنه ما لم تكن وسائل الإعلام منسجمة معها ، بل محققة للأهداف التربوية في المجتمع ، فإن حالة من التناقض أحياناً والازدواجية تحدث في توجيه الفرد الناشيء وصياغة شخصيته وهذا قمة الخطر والخطأ .

إن البحث عن حلقة أو حلقات الاتصال أمر واجب ، فنحن مجتمع مؤمن بالله متمسك بقيمه الإسلامية الخالدة ، متماسك في تكوينه كأسرة واحدة ، ومع ذلك فإننا بسبب طبيعة الاتصال العالمي بمختلف أوجهه وأشكاله ، أصبح العالم مترابطاً ونحن جزء منه وما لم تُحكم قنوات التوجيه التربوية والإعلامية في قالب واحد ، فسوف يتعرض الجيل الناشيء للمؤثرات التي ترد مع وسائل التطور الخارجي ... لذا فإن توجيه الفرد ، خاصة الصغار ، في الاتجاه الصحيح من حيث بناء شخصيته الوطنية المؤمنة ومن حيث قدرته على مقاومة الموثرات الخارجية ... أي بناء عوامل المناعة الذاتية ، وهذا لن يتم مالم يكن العمل مشتركاً ومنطلقاً من قاعدة واحدة ، إنني أدعو إلى أن يكون العمل التربوي بمناهجه وأساليبه ، والعمل الإعلامي ، بوسائله وبرامجه عملاً متكاملاً متمماً لبعضه .

هذه هي العلاقة بين التربية والإعلام وهذا ما يعتقده التربويون من أن جهدهم في إعداد المواطن الصالح ربما يتبخر نتيجة لما تقدمه وسائل الإعلام من مواد وبرامج لا تتناسب وأهداف التربية التي يقوم عليها ، وهذا ما يجعل البعض يرى أن الإعلام بلاء نزل قبل أن نُعد العدة له وأنه يعمل ليهدم تراثنا وقيمنا وحضارتنا ... وأنه عمل منظم

يبثه الأعداء لتكريس انبهارنا بهم ثم العمل لنكون تابعين لهم في قيمهم ومبادئهم الهدامة ، بينما يرى البعض الآخر فوائد كثيرة لهذا الإعلام في المتعة والفائدة والتسلية والأخبار ... وأنه إنقاذ من ضعف الوسائل الموجوده لشغل أوقات الفراغ .

وفي هذا الإطار يقول الدكتور محمد الرشيد « والإعلام والتربية جناحا طائر - لاتحلق أمة من الأمم اليوم في عوالم المعرفة إلا بهما معاً . والمسؤلون في كل من القطاعين مدعوون اليوم أكثر من أي يوم مضى إلى أن ينسقوا عملهم ليكمل بعضه بعضاً ، ويفيد بعضه بعضاً ويكون مثلهم كمثل الجسد الواحد الذي يتداعى كله لألم بعضه ، أو كمثل النبع تتشعب منه الوديان فتسقى الحرث ثم تصب في موضع واحد هو ما أستهدفته في سيرها الطويل » . (المرجع السابق صفحة ٢٥) .

هذه هي المحاولة الأولى المنظمة بحثياً وأكاديمياً لاستجلاء واقع العلاقة بين الإعلام والتربية وهنا نأتي بعد أربعة عشر عاماً للحديث عن نفس الموضوع وكأنه يحدث في الأسبوع الماضي مثلا ، نفس التمنيات ... ونفس الطموحات ... ونفس التداخل والأشكال بين علاقة التربية والإعلام .

وسأحاول في حديثي عن الموضوع مناقشة الآتي :-

١ - مفهوم الإعلام التربوي .

٢ - الحاجة إلى الإعلام التربوي .

٣ - مستقبل الإعلام التربوي .

مفهوم الإعلام التربوي :

تأتي هذه الورقة كمحاولة لتأصيل مفهوم الإعلام التربوي وبالتالي البدء في إحداث تخصص أكاديمي من الممكن أن يحصل فيه الطالب على درجة علمية في هذا المجال ، وعندما ننظر إلى العلوم الأكاديمية وكيف تكونت حتى أصبحت تخصصات يحصل فيها الطلاب على درجة علمية نجد أن هذا قد أخذ وقتاً طويلاً ... فتخصص الإدارة العامة أو إدارة الأعمال أو العلوم السياسية أو التاريخ أو غير ذلك ... تخصصات تكونت خلال فترة زمنية معينة حتى تبلورت بما هي عليه الآن .... وفي المقابل نجد أن هناك تخصصات تطورت وانصهرت في بعضها البعض وأخرى انحسرت وحل محلها تخصصات جديدة ... ومن التخصصات التي تشهد اهتماماً كبيراً في

معظم دول العالم المتقدمة تخصص الإعلام والأقسام المتفرعة منه ... وذلك لأن الإعلام مرتبط بما تشهده من تقدم معلوماتي عظيم يدخل في إطار ما يسمى بالقرية الكونية ، وارتباط الفرد بشكل واضح بوسائل الإعلام شاء أم أبى ... وبالتالي فإن حاجة المتخصصين والعاملين الذين يديرون هذه الأجهزة ويتولون أنتاج برامجها قد أصبحت حتمية ، ومن هنا لا تخلو جامعة عالمية محترمة من وجود كلية خاصة للإعلام يدرس فيها مئات الطلاب في مختلف التخصصات ، أما التربية فكلياتها تمتلئ بالطلاب الذين يتم إعدادهم للعمل في مختلف مجالات التربية ومن ذلك العمل في مهنة التدريس ... لذا فحين نريد أن نوجد تعريفاً لمفهوم الإعلام التربوي سعياً وراء تأطيره أكاديمياً ليتم تدريسه للطلاب سواء في كلية الإعلام أو في كلية التربية ... فإن النظرة تتطلب التعمق في طبيعة الدور الذي من الممكن أن يقوم به الإعلام التربوي في عملية بناء شخصية الفرد .

الدكتور حمود البدر أحد المتحمسين والمنادين بأهمية إعطاء الإعلام التربوي حقه من العناية والرعاية ، لذلك يعرفه على إنه الموائمة بين الإعلام والتربية بحيث لا يهدم أحدهما ما يبنيه الآخر ويقول في هذا الصدد : « الإعلام التربوي هو المحاولة الجادة للإستفادة من تقنيات الاتصال وعلومه من أجل تحقيق أهدافه التربية من غير تفريط في جدية التربية وأصالتها أو إفراط في سيطرة قنوات الإتصال وإثارته عليها » (الإعلام التربوي في دول الخليج ص ٤١) ويمكن أن يضاف على هذا التعريف تعريف آخر بأن الإعلام التربوي هو تسخير وسائل الإعلام لخدمة أهداف التربية وتسخير التربية لخدمة أهداف الإعلام . مثل هذا التعرف يكفل تحقيق الموائمة بين الإعلام والتربية ويضع الأسس الأولى للرسالة المشتركة التي من الممكن أن يقوم بها الإعلام التربوي للمساهمة في تشكيل الفرد الصالح تشكيلاً متوازناً وفق متطلبات المجتمع .

الحاجة إلى الإعلام التربوي

يقف العربي المسلم موقف الحائر المذهول من التناقضات التي يعيشها.. ومن سرعة تطور المعلومات والتقنيات الهائلة التي يشهدها العالم بلا شك والتي أفقدت الإنسان توازنه واختلطت عليه المفاهيم في محاولته الوصول إلى ما يكفل له العيش الهنيئ الذي يجلب له أسباب السعادة والرفاهية .

إن سرعة التطورات التي مر بها العالم خلال العقود القليلة من الزمن تجعل الكثير

من كبار السن حالياً يعيشون حالة انبهار للتطور الهائل الذي يعيشه العالم ... ومثل هذا التطور أوجد للإنسان عقلية مرتبكة أثرت كثيراً على الجانب الروحي والعاطفي والوجداني وأصبح أسير الهم الفردي والبحث عن المادة ... ومن قُدر له أن يعيش في مجتمعات متقدمة ويعايش الإعلام هناك ... يجد أن الفرد من السهولة بمكان أن يكون أسيراً لوسائل الإعلام إلى درجة كبيرة سواء فيما يتعلق بالبرامج السياسية أو الإقتصادية أو الترفيهية ، وهو أمر يعود بالدرجة الأولى إلى ما يُبذل من جهد ومال لإعداد مثل هذه البرامج والطريقة المتقدمة في العرض مما يجعل الإعلام أحد أهم الوسائل لإمداد الفرد بالمعلومات والثقافة والتربية والتعليم .

أما في عالمنا الإسلامي فالأمر جُد خطير ولا أعتقد أنني بحاجة إلى توضيح المأساة التي نعيشها فيما يتعلق باهتمامنا أو تعاملنا مع وسائل الإعلام ...

وأكثر ما يواجه المواطن العربي عند تعامله مع معطيات الحضارة العالمية هو شعوره بعظمة تاريخه الإسلامي العظيم وأهمية الرسالة التي يحملها للعالم وبالمقابل موقعه من هذه الحضارة وبقائه في آخر درجات السلم الحضاري تقنياً وتعليماً وعسكرياً بشكل يدعو للأسى والحزن والشعور بالمرارة ... إن مثل هذا الموقع الذي نحن عليه ـ نحن المسلمين ـ معتمدين على غيرنا في معظم مجالات الحياة قد مكن الأعداء من السيطرة علينا بشكل ملحوظ وهذا أدى إلى حدوث التبعية الإعلامية والتبعية الثقافية بشكل لمسناه قبل وصول البث المباشر والإتصالات الفضائية إلينا . بمعنى أن ذلك بدأ مع دخول التلفزيون واعتماد برامجنا على المنتج الأجنبي ونظرتنا لهذا الأمر نظرة قاصرة مترددة مكنت الأعداء من إحكام السيطرة حتى فوجئنا بما نعيش عليه الأن من تبعية واضحة لم تعد اختيارية بقدر ما هي تبعية اجبارية ليس لنا عنها مناص في ظل ضعف الوسيلة الإعلامية العربية وعدم وجود التنسيق المطلوب بين الإعلاميين ونظرائهم التربويين .

إن التبعية الإعلامية خلقت ازدواجية كبيرة في ذهنية المتلقى العربي ، فأصبح هناك تناقض كبير بين ما يتلقاه عبر أساليب التربية المقصودة ومنها المدرسة وعبر الأساليب الإعلامية الأخرى التي تقدم له ما هو متعارض مع ما يتعلمه في المدرسة .

إنني لا أخفيكم سراً أن غالبية سكان مدينة الرياض حالياً يوجد لديهم أطباق فضائية وأن هذه الأطباق تنقلهم إلى مختلف أساليب الحياة التي ليس لها علاقة بعادات مجتمعنا وتقاليده وقيمه ... وتعرضهم للتناقض الذي أشرت إليه ... وبطبيعة الحال فهذا الأمر يحدث

في مختلف مناطق المملكة وبدرجات متفاوته ... وأحسب أنه وخلال سنين قليلة سيصبح جهاز التلفزيون كجهاز المذياع ينقلك إلى كافة القنوات ودون أن نتحكم في ذلك ... والأنكى من ذلك وجود بعض قنوات البث الموجهة لمخاطبة الغرائز قبل أن تخاطب الفكر والوعي والثقافة ويقوم عليها إعلاميون يختلفون تماماً عن إعلاميينا ومن بيئات لا تأخذ في الاعتبار إلا ثقافاتها وتجاربها وقيمها . فهل نحن مستعدون لهذا الخطر الذي يعيش بيننا ؟ وهل نحن مستعدون لحجم التغيير الذي يشهد به العالم ؟ .

إن الذي يحدث حالياً أن الطفل ينشأ وهو مشوش الذهن حول مختلف المتغيرات التي تعيش حوله وبين ما يطالب به ... وبين ما هو حاصل فعلاً ... وبين ما يسمعه من أبيه وبين ما يمارسه أبوه ... وبين ما تقوله له المدرسة ... وبين ما يتلقاه من رسائل الإعلام ... وحينما أحاول أن أقترب من نقطة الخطر في الموضوع فإنني أقترب أكثر إلى واقعنا المحلي في التربية وعبر عدة طرق مختلفة في ايصالنا للمعلومة للأطفال ، وسأضرب مثلاً ربما يفهمه البعض فهماً مختلفاً ولكني حرصت أن أتمثل به لأقرب خطورة ما يحدث ولو بمثل هذا المثال الذي يبدو بسيطاً أو مقدوراً عليه عند الكبار ولكنني أشعر أنه يحمل الكثير من علامات الأستفهام لدى الأطفال وبالذات حينما يكون هناك حوار حقيقي معهم . وهو الأمر المفقود وللأسف .

فلو أخذنا مثلاً قناة تلفزيونية محافظة ربما يجزم ولي الأمر أنها الأنسب إلى أطفاله ولا يمانع أن يتابعها أطفاله ، ثم يجد طالب الابتدائية نفسه في حيرة وهو يرى أناشيد الأطفال مثلاً تصاحبها الموسيقى والأطفال ينشدونها في تلهف أو إعجاب ، ثم يستمع الطفل إلى من يقول له أن الموسيقى بجميع أشكالها حرام وأن عليه ألا يستمع إليها ... ثم يجد أن قناة متخصصة للأطفال قد تكون بداية أمل لأي تربوي قد يرى فيها جوانب إيجابية لمشروع من الممكن دعمه ومساندته ثم يجد أن الموسيقى موجودة في أفلام الكرتون المشوقة للأطفال وفي مسلسلات الأطفال البريئة التي تحمل مضموناً تربوياً جيداً ، ومع ذلك فهو تحت تأنيب الضمير والخوف من العقاب في عدم الاستماع أو مشاهدة ما يوجد به من موسيقى .. إنني أكاد أجزم أن أي ولي أمر في حيرة فهو ربما عندما يركب السيارة لوحده يستمع الموسيقى وحينما يركب معه صديقه يكون موقفه مختلفاً تماماً ومثل ذلك مع أطفاله أو مع أطفال أصدقائه ... وبغض النظر عن الدخول في تعريفات فقهية واختلاف الفقهاء حول هذا الأمر إلا أنني أعتقد بأن هذه مشكلة

كبيرة في مفهوم أي إعلام تربوي من الممكن أن يُقدم عبر وسائل الإعلام المختلفة وبالذات في التلفزيون .

إن السنوات الخمس الأولى من عمر الإنسان هامة جداً في تكوين مستقبل الفرد . ومثل التناقض الذي يحدث للطفل في مثل هذه المرحلة أمر في غاية الخطورة وله تأثيره على تركيبته الذهنية ومستقبله الفكري .

لقد كان المثال بسيطاً ... ولكن ماذا عن نظرتنا لقضايا المرأة المختلفة ... أو تناقضاتنا في ما نفعله عندما نكون خارج البلاد وعندما نكون في داخله .. أمور كثيرة لا أعلم كيف يجب طرحها .. ولا أدري إلى متى نكون مترددين في مواجهة الأمر بشكل أكثر واقعية وعقلانية يأخذ في الأعتبار موروثنا الحضاري العظيم وبالمقابل حركة العصر وما يشهده العالم من تقدم وتطور ونهضه .

إن الحاجة إلى الإعلام التربوي تكمن في طول الساعات التي يقضيها الفرد أمام وسائل الإعلام وأهمها حالياً التليفزيون وتعدد القنوات والخيارات أمامه وحاجته إلى شيء من الوقت للتسلية والترفيه والأستفادة من معطيات الحضارة الحديثة كنوع من الاحتجاج على أسلوب التربية والمواعظ التي تعرض في التلفزيون بطرق مباشرة تقليدية تنفر أكثر مما تحببه لمشاهدة البرنامج وهو أمر يُجبره على البحث عن عوالم أخرى تشد ذهنه وتسيطر على اهتماماته .

كما أن هذه الحاجة تتطلب النظر إلى الوضع الحالي نظرة واقعية موضوعية تأخذ بأيدينا مما نحن عليه من ضعف وتبعية حتى أصبحنا متلقين ومستهلكين للمواد الإعلامية . وفي نفس الوقت إدراك حجم المسؤولية والأمانة الملقاة على عواتقنا فيما يخص الأجيال القادمة ، إن الأمر يتطلب استنهاض الهمم واستشعار المسؤولية لإعداد برامج متوازنة تأخذ بسمات العصر الحديث ولا تفقد ارتباطها بجذورها وقيمها الإسلامية العظيمة .

فالإعلام التربوي مهم جداً لإعداد برامج ومسلسلات وموضوعات ومقالات في جميع وسائل الإعلام مرتبطة إرتباطاً كبيراً بتوجهات التعليم التي نحن بحاجة إليها .

والإعلام التربوي له دور كبير لإعداد برامج الأطفال ولتقديم المقرر الدراسي عبر مادة تلفزيونية مطورة .. إن درساً تلفزيونياً مدته عشرون دقيقة في كيفيه أداء الصلاة

ثم شرحه للطلبة ومطالبتهم في أن يؤدوا الصلاة بالطريقة التي رأوها في التلفزيون أمر سوف يختصر الكثير من جهد المعلم .. وجهد الطلبة .. وجهد العملية التعليمية أيضاً .. كما أن مدرساً متميزاً في مادة العلوم من الممكن أن يوصل مادته عبر مادة تلفزيونية إلى مئات بل آلاف من الطلاب بطريقته الناجحة وأسلوبه الرائع والموفق في تقديم المعلومة للطلاب .

إن الإعلام التربوي هام جداً في مجال تعليم محو الأمية وفي بث الوعي بأهمية التعليم التقني ويخلق الفرص التعليمية الكثيرة للعديد من الطلاب عبر ما يسمى بالتعليم التلفزيوني أو ما شابهه مثل الجامعة المفتوحة في بريطانيا مثلاً .

مثل هذه الأمور توضح أهمية الإعلام التربوي الذي يتطلب اهتماماً كبيراً على مستوى الدولة حتى لا يكون هناك تناقض بين المدرسة والإعلام والملاحظ أن هناك حديثاً طويلاً عن المعلم وإعداده وتدريبه لكن للأسف هذه لا يكون عن الإعلامي وأهمية اشتراط الكفاءة والموهبة والإعداد الجيد حتى يستطيع الإعلامي أن يقوم بدوره بالشكل المطلوب ، وحتى لا يهدم الإعلام ما تبنيه التربية على حد قول رجال التربية أنفسهم وحتى تتخلص من لوم كل طرف الطرف الآخر رغم أن الإعلاميين يؤكدون أن الإعلام ما هو إلا وعاء لمخرجات التربية ، وما تعده المدرسة أو الكلية هي العناصر التي إذا اتجهت إلى الإعلام تُشرف وتتابع إنتاج البرامج . ومن هنا جاءات أهمية الإعلام التربوي الذي مهمته إعداد مواهب تربوية متميزة تحمل الهم التربوي ويوجه لديها الحس الإعلامي والاستعداد لهذا المجال ... بحيث يكون لدينا قدرات تتقن المجالين وتفهم اللعبتين وتمزج بين إثارة الإعلام وحيويته وتشويقه ، وأناة التربية وهدوئها وتعقلها .

إن الحاجة للإعلام التربوي سوف تسهم بدرجة مقبولة لبناء خطوة لمكافحة هذا الغزو الإعلامي غير العادل ... والذي يؤكد اختلال نظام الحصول على المعلومة حيث تتولى الدول الكبرى حقن المعلومات باتجاه عمودي ... أحادي الاتجاه من الشمال إلى الجنوب . ودول العالم الثالث تتلقف كما يقول محمد الغنام « البرامج والمعلومات لافتقارها للقدرات والإمكانات المطلوبة » (المرجع السابق صفحة ٦٣) .

ورغم كل ما يبدو من تنافر بين الإعلاميين والتربويين لعدم فهم كل منهم وجهة نظر الآخر . إلا أن الأرضية المشتركة لإيجاد مثل هذا التفاهم موجودة منذ ربع قرن تقريباً حينما نصت وثيقة السياسة التعليمية بكل وضوح في عدد من موادها على أهداف

إعلامية تربوية منها :.

١ ـ انسجام الصحف والمجلات العامة منها والخاص مع أهداف التعليم في التوجيه والتربية والفكرة والغاية .

٢ ـ الإستفادة من الصحف المدرسية في التوعية .

٣ ـ إصدار مجلة خاصة تعبر تعبيراً صادقاً عن المجتمع القويم والروح التربوية لرفع مستوى أسرة التعليم .

٤ ـ قيام المجلس الأعلى للتعليم بتوجيه الجهود التربوية لوسائل الإعلام والنشر والتوعية والإرشاد ورعاية الشباب .

٥ ـ إسهام وسائل الإعلام في التوعية العامة التي تمهد لتحقيق أغراض التعليم وإزالة العقبات التي تحول دون تنفيذها .

٦ ـ إسهام وسائل الإعلام في تنمية الروح الإيجابية بين المجتمع والمدرسة وفي التعاون مع الجهات التعليمية للوصول إلى ما يحقق أهداف التربية والتعليم على خير الوجوه .

٧ ـ تعاون وسائل الإعلام في حملة التثقيف العام لإتمام ثقافة الطلاب من جهة وتزويد أفراد الأمة برفع مستواهم الثقافي من جهة أخرى .

أما وثيقة السياسة الإعلامية للمملكة فتقول في بعض موادها :.

١ ـ إيلاء الأسرة ما تستحقه من اهتمام على اعتبار أنها الخلية الأساس في بناء المجتمع والمدرسة الأولى للتعليم والتربية .

٢ ـ الاهتمام ببرامج الأطفال التوجيهية والتثقيفية على أسس تربوية علمية مدروسة.

٣ ـ الأستعانة بذوي الاختصاص في إعداد البرامج الموجهة للأطفال .

٤ ـ رعاية الإعلام السعودي للشباب رعاية خاصة تنبثق من الإدراك الواعي بمراحل النمو الخطرة التي يمرون بها ابتداء بمرحلة المراهقة عن طريق تخصيص البرامج المدروسة لهم بهدف إيجاد العلاج لمشكلاتهم وتلبية حاجاتهم وعمل كل ما من شأنه إبعادهم عن مزالق الإنحراف .

٥ ـ التعاون مع المؤسسات التعليمية ومراكز البحوث لإجراء البحوث والدراسات الأعلامية .

إن مثل هذه البنود والمواد هامة وتبدو جميلة من حيث الصياغة وحسن الهدف ولكن التطبيق يتم بطرق بعيدة عن هذه النوايا الجميلة ... ويبدو أن السياسة الإعلامية والسياسة التعليمية قد تم إعدادهما منذ زمن حيث يلاحظ أن السياسة التعليمية مثلاً قد أعدت قبل أن يبدأ التلفزيون في بلادنا ، وبالتالي فلم يكن هناك أية إشارة واضحة إلى التلفزيون أو إلى عصر الاتصالات الفضائية والأقمار الصناعية مما يتطلب أهمية مراجعة السياسة التعليمية لتتواكب مع الإنفجار المعلوماتي وعصر الإعلام المتطور .

يقول عبد التواب يوسف ، وهو أحد المثقفين الذين كتبوا كثيراً في مجال الكتابة للطفل والحائز على جائزة الملك فيصل في تحليله للعلاقة بين التربويين والإعلاميين وأهمية إيجاد التقاء بينهم لصالح الفرد .

« على مدى العمر والإعلاميون يحسبونني من التربويين ، والتربويون يعدونني من الإعلاميين ودوماً اصارح الطرفين بأنني إنما أنتمي للثقافة ، كما أنني بذلت جهداً من أجل تضفير التعليم بالإعلام في عملي ، وجعلت التربية مضمونا والإعلام وسيلة .. وما شاركت في الاتهامات المتبادلة بينهما ، لأنني أومن بأنه لا غني لجانب عن الآخر .. ولا استقلال لأحداهما عن الثاني وإلا هدم كل منهما ما بينه وبين الآخر . وهو يؤكد أن التربويين يريدون أن يتسللوا إلى مبنى الإذاعة والتلفزيون لإبعاد هؤلاء غير التربويين الذين يدمرون أطفالنا ببرامجهم . وبالمقابل فإن الإعلاميين يرون أن التعليم داخل الأسوار ، وفي الحجرات المقفلة في هذه السجون المسماة بالمدارس أمر لا يفيد الأطفال حيث تلقنهم معارف لا تجدي في الحياة وتربيهم على قيم أصبحت بالية . ليس لدى الأطفال أدنى اختيار أمام هذا الإرهاب ، بينما نجتذبه من برامجنا فيتجه إلينا تلقائياً وبأختياره ، ليستمع وليشاهد وليعجب ببرامجنا التي نقدمها إليه » (المرجع السابق صفحة ٣٧٥) .

أما عبد الرحمن الشاعر في أحداث دراسة عن إدخال مادة الإعلام التربوي ضمن برامج كليات التربية ومناهجها في جامعات دول الخليج العربية ولأهداف منها تحديد أهمية الإعلام التربوي في الإعداد التربوي لمدرسي المستقبل . وتحقيق المواءمة بين ما تقدمه المؤسسات التربوية وما تقدمه وسائل الإعلام ، وتحديد الجوانب المعرفية والمهارية

التي يجب أن يشملها مقرر الإعلام (ص ٤ الشاعر) فإنه يحاول أن ينطلق في دراسته إلى ربط كليات المعلمين بالإعلام التربوي عن طريق إدخال مادة الإعلام التربوي كمادة أساس عند تأهيل المعلم . وينطلق من نظرة واعية متقدمة لمستقبل العالم ومستقبل التربية ومدرسة المستقبل .. ومعلم المستقبل حيث ربما يشمل التغيير في المدرسة تنظيماً معمارياً بعيداً عن الأسلوب النمطي المعمول به في مدارس اليوم ، بحيث تصبح غرف الصف ورش عمل يتم من خلالها ممارسة التعليم من قبل الطلاب بدون حاجة إلى توجيه التعليم وفوق القنوات التقليدية ، ويوحي الشاعر بعد دراسته التي استهدفت أعضاء هيئة التدريس في جامعات خليجية حول أهمية الإعلام التربوي بأن الدراسة كشفت عن حجم الاحتياج في كليات التربية المعنية بإعداد المعلمين والمعلمات إلى مقرر يسعى إلى تسخير الإمكانات الإعلامية لخدمة العملية التعليمية وإعداد العناصر الموجة لهذا العمل كما يوصي الباحث بوجوب أن يقوم التربويون بالتنسيق مع أقسام الإعلام في الجامعة « إن وجدت » للإسهام في تعميم المقرر وتنفيذه على أن تتولى أقسام الإعلام الجوانب الإعلامية في المقرر بالتنسيق مع كلية التربية ويطالب بتوثيق العلاقة بين كليات التربية بجامعات دول الخليج العربي ، من جهة ووزارات المعارف والتربية والتعليم من جهة أخرى فيما يتعلق بإعداد المناهج الدراسية والتوجيه التربوي ، ويختتم توصياته بضرورة إيجاد قناة تعليمية تبث من خلال الأقمار الصناعية تكون رافداً تعليمياً للمؤسسات التعليمية ووسيلة تدريب للقائمين على تلك المؤسسات .

الإعلام التربوي ـ مقترحات للمستقبل :

بعد هذا العرض الذي يُظهر التنافر بين الإعلام والتربية في إعدادهما للمواطن ليكون عضواً صالحاً في مجتمعه . وبعد أن طرحنا تخوف رجال التربية من الإعلاميين وكمية الساعات الطويلة التي ـ في نظرهم ـ يهدم الإعلام فيها ما تبنيه التربية .. يجدر الوصول إلى مقترحات واقعية وقابلة للتطبيق تنطلق من الإحساس بالمسؤولية الكبرى عن مثل هذا الأمر الخطير الذي ما لم يتم استدراكه فإننا لا شك سنُعرض مستقبلنا ومستقبل أجيالنا للخطر . والذي يسهل الأمر لدينا في المملكة العربية السعودية هو أن وزارة المعارف ووزارة الإعلام جهتان حكوميتان يحملان نفس الأهداف لإعداد الفرد السعودي الصالح المعتز بوطنه والمتفاعل مع تنميته والمتحفز للقيام بدوره في حركة النهضة والتطوير .. بمعنى أن دولاً كثيرة تقع تحت سلطة المؤسسات الإعلامية التجارية

الربحية التي لا تهتم بأي شيء قدر اهتمامها بالغرائز والإعلانات وتحقيق أعلى الأرباح بشكل ليس له علاقة بأي شكل من أشكال التربية .

ويمكن تلخيص عدد من المقترحات التالية وهي :

١ ـ تشكيل لجنة عليا للإعلام التربوي لمناقشة هذه الأمور وتكون لجنة مستمرة وتنعقد بصفة دورية ومهمتها المواءمة بين الإعلام والتربية وبحث ما يمكن من تطوير لآلية التعاون وبحث إنتاج البرامج وتكوين علاقة جيدة مع وسائل الإعلام وتكون برئاسة وزير المعارف وعضوية وكيل وزارة الإعلام للشؤون الإعلامية ووكيل وزارة المعارف ووكيل الرئيس العام لتعليم البنات ورؤساء تحرير الصحف السعودية ومدير عام وكالة الأنباء السعودية ووكيلي وزارة الإعلام للتلفزيون والإذاعة ورئيسي قسم الإعلام وقسم الوسائل التعليمية بجامعة الملك سعود وخمسة من كبار قادة الرأي العام وكُتاب الزوايا اليومية وتكون سكرتارية هذه اللجنة في وزارة المعارف ويُعرض على هذه اللجنة جميع ما يخص العلاقة بين التربية والإعلام ، وتضطلع بمهمة استشراف المستقبل والنظرة إلى ما سيحدث في العالم من تقنية وتطور وتقدم مع الأستعداد لإعداد قناة تربوية ثالثة تهتم بجوانب الإعلام التربوي وأهدافه .

٢ ـ إنشاء وكالة مستقلة في هيكل وزارة المعارف للإعلام التربوي تهتم بما له علاقة بالإعلام التربوي وتعمل على تبني المواهب الإعلامية من العاملين في الوزارة وإعداهم لتنفيذ برامج تلفزيونية وإذاعية ومطبوعات صحفية تأخذ بالأهداف العامة للتربية وتضمن القيام بإنتاج برامج مستمرة تمد بها التلفزيون وبقية وسائل الإعلام الأخرى وبالتالي توفر الوقت والجهد على الزملاء الإعلاميين من القيام بهذه المهمة الكبرى .

٣ ـ إنشاء وكالة الإعلام التربوي في وزارة الإعلام مهمتها القيام بنفس الدور وتبني المواهب الإعلامية ذات الهمم التربوية ويكون هناك تنسيق مستمر مع الوكالة المماثلة في وزارة المعارف عبر اللجنة العليا للإعلام التربوي ويمكن أن يتم تأخير إنشاء هذه الوكالة حتى تتضح الصورة حول مثيلتها في وزارة المعارف .

٤ ـ إنشاء قسم الإعلام التربوي يكون نواة لكلية للإعلام في إحدى الجامعات السعودية ويكون مقدمة لتخريج قدرات ومواهب إعلامية تربوية لإيجاد أعلامي تربوي في كل مدرسة بحيث يتولى الإشراف على البرامج الإعلامية التربوية داخل مدرسته .

والعمل على تسهيل إنتاج البرامج والإصدارات الصحفية لعرضها في التليفزيون أو توزيعها على مختلف المدارس .

٥ ـ الاستفادة من البث المركزي للتلفزيون في توجيه برامج تلفزيونية مباشرة إلى جميع المدارس في وقت واحد معين يحدد ضمن الجدول الدراسي . وهذا سيسهل إيصال أي معلومة جديدة للطلاب ويخلق الجو الجماعي في أن يشاهد الطلاب عبر شاشة ضخمة برنامجاً معيناً في وقت واحد وموضوع واحد .. وهذا سيكون مفيداً في المناسبات الدينية والوطنية والثقافية والرياضية وتوفير عامل التوجيه وإيصال الرسالة بطريقة مشوقة وجديدة .

٧ ـ إعطاء الفرصة لمنسوبي وزارة المعارف المتعاملين مع وسائل الإعلام الأولوية في العمل في النشاطات المدرسية والإشراف عليها وكذلك عند إختيار مديرين للمدارس نظراً لتوافر القدرات الاتصالية عندهم أكثر من غيرهم .

٨ ـ أن يتم إعداد الإعلامي والاهتمام به أسوة بالاهتمام بالمعلم وإعداده ذلك أن الإعلامي يقوم بدور خطير لا يقل أهمية عن دور المعلم في توجيه المجتمع وتوعيته .. وأن يتزامن مع ذلك زيادة حوافز العاملين في وزارة الإعلام من القدرات الإعلامية الجيدة التي برزت في مجالي الإعداد والتقديم بحيث تُدعم وتُشجع وتعطي التقدير المعنوي والمادي اللازمين .

وقد شعرت بالدهشة عندما قدر لي التعامل مباشرة داخل الوسائل الإعلامية الحكومية كالتلفزيون مثلاً من قلة تشجيع الكفاءات الموهوبة التي تتميز بأنها نادرة .. حيث يلاحظ أن المواهب الإعلامية التي نسمعها عبر الأثير ونستفيد ثقافياً منها إعداداً وتقديماً أو المواهب التي نشاهدها في التلفزيون والجهد الذي تبذله نجد أنها ضحية التجميد الوظيفي وقلة فرص الترقيات وقلة الحوافز مما أثر بلا شك على عطائها وحماسها لإنتاج البرامج الهادفة التي تصب في إتجاه الأهداف التربوية ولعلها دعوة هنا لإعداد كادر متميز ومجزٍ للإعلاميين يتماشى مع أهمية العمل الإعلامي ويمنع هذه المواهب من التسرب من هذا المجال .

٩ ـ نظراً للطريقة المغرية التي تعرض بها الإعلانات التجارية وجاذبيتها وشعبيتها عند الأطفال فلا بد من موقف حازم تجاه سيطرة المادة على تفكير بعض القائمين على شركات التسويق الإعلانية بشكل يخلو من المسؤولية في بعض الأحيان ويكون الطفل

هو الضحية .. وهذا الأمر يكون بوضع معايير مقننة للإعلان بحيث يُطلب من شركات الإعلان الالتزام بمحتوى الإعلان ومضامينه وخلوه من المبالغة والإسفاف وذلك قبل عرضه .

١٠ ـ الاهتمام بالمستقبل وآفاقه ونظريات مدرسة المستقبل حيث عصر الاتصالات الفضائية والتقدم التقني في مجال المعلومات ومن ذلك الاتجاهات التي تنادي بسقوط المدرسة والاعتماد على الإعلام في تربية الأفراد وتعليمهم وإمدادهم بالمعلومات والمقرارات والمناهج المطلوبة ومن ذلك عصر الحاسب الآلي وتبادل المعلومات .

١١ ـ الاهتمام بالتجارب الدولية في الإعلام التربوي والأستفادة منها ومن ذلك تجربة اليابان التي أنشأت هيئة وطنية إعلامية تتمثل في هيئة الإذاعة اليابانية التي نص قانونها على أن التربية إحدى المهام الأساسية للهيئة ... وتقوم على تشجيع التعليم بالمراسلة وتبث ٦٠ ساعة أسبوعياً للتعليم النظامي ، كذلك تجارب السويد وكندا والولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا .

١٢ ـ إلقاء الضوء على الجوانب الإيجابية للإعلام مثل دوره في نقل المشاعر الدينية ، ومناسك الحج والعمرة . وصلاة الفروض من الحرم النبوي وصلاة التراويح فلا يخفى الأثر التربوي والنفسي الإيجابيين المتكون لدى عدد كبير من مشاهدي التلفزيون في شتى بقاع العالم وهم يتابعون الصلوات في شهر رمضان أو غيره وهذه إيجابية كبيرة للإعلام يلمسها أي منصف .

١٣ ـ تطوير الكفاءات في مجال الصحافة بشكل عام وصحافة الأطفال بشكل خاص وتشجيع الاتجاهات التربوية في الصحافة والتعامل معها بكل إحترام وتقدير مع تشجيع العاملين في هذا المجال نظراً لأهمية الكلمة المقروءة في هذا المجال .

١٤ ـ حيث إن التربية عملية تغيير مستمرة وتقوم ببناء الفرد بناءً متكاملاً عقلياً وجسمياً وأنفعالياً وسلوكياً ونفسياً فإن تكوين ثقافته وربطه بأحداث العالم وشؤونه أمر في غاية الأهمية لجعله يعيش واقع عصره ... ومن ذلك أن تقوم كل مدرسة بإعداد ملخص يومي لآخر ما تناقلته وسائل الإعلام من الجديد في العلوم والتقنية والثقافة وشؤون وأحداث العالم الذي نعيشه والمجتمع المحلي وتعميمه على المعلمين ثم يتم إعداد ملخص لإبلاغه للطلاب بطريقة مشوقة تطرح فيها مسابقات لجذب انتباه الطلاب وهذا سيربط الطالب بالمجتمع وبالعالم وينمي مواهبه وقدراته الاتصالية .

١٥ ـ الاهتمام عند عرض المواد التوجيهية بربط الأطفال بخالقهم عز وجل وتحبيبهم لعمل الخيرات وزرع مجالات الرحمة والإنسانية عند الأطفال والتركيز على جوانب الثواب بدلاً من التركيز على جوانب العذاب والعقاب التي ربما لا يدركها الطفل أو يستوعب أبعادها .

١٦ ـ تطوير محتويات الكتب المقررة في المراحل الجامعية بحيث يتم مناقشة تأثير التلفزيون علي الأطفال وعلاقة الصحافة بالأطفال . حيث لا يوجد في مقرارات علم النفس مثلاً ـ التي تُدرس للطلاب ـ ماله علاقه بالإعلام وهذا يدل علي خلوها من الإبداع وأنها كتب يقلد بعضها بعضاً .

١٧ ـ وضع منهج علمي عقلاني يعود فيه الطفل على النقد والتحليل والتفكير والابتكار ، بحيث يكون قادراً بنفسه على التمييز بين الحقيقة وغير الحقيقة .. وبين ما هو مقبول في مجتمع ولا يعاقب عليه القانون ومرفوض في مجتمع آخر ويعاقب عليه النظام وأن ذاك من طبيعة اختلاف البشر وخصوصية كل مجتمع عن الآخر فكلما استطعنا الارتقاء بذهنية الطفل وزرعنا فيه حب الاستكشاف والسؤال والحوار والقدرة على الاتصال ، فإن ذلك يُعفينا من الطرق التقليدية المباشرة في إيصال المعلومة .. ويمكن أن يكون ذلك بوضع مفردات في مناهج القراءة لدى الأطفال يكون فيها موضوعات مختلف عليها وأسباب الخلاف ثم تعويد الطفل على قبول مثل هذا الأمر بشكل مبسط ومقبول .. كذلك تهيئة الطفل لكي يفرق بين الخيال والحقيقة والدعاية الكاذبة والأعلان الهادف .. بحيث يوضح للطفل الجوانب الاقتصادية في الحياة ، وأن التاجر عندما يعرض بضاعته ليس بالضرورة ما يقوله صحيحاً ولكن رغبته في الربح والكسب ربما تجعله يجنح للمبالغة وأحياناً الكذب ، وهو أمر غير مقبول أخلاقيا ، مما قد يؤدي إلى خفض هذه الحماسة في تتبع الإعلانات التجارية وتصديق ما تقوله .

١٨ ـ تكوين الأرضية القوية للحوار مع الأطفال حول أسئلتهم ووجهات نظرهم ومشكلة الازدواجية التي ربما تنشأ عند الطفل مع عجز والديه والمجتمع والأسرة والمدرسة عن الإجابة على أسئلته فيلجأ إلى أن يجيب بنفسه ويبنى معلوماته على اعتقاداته الخاصة .. وهذا التغير يُوجد لديه أزدواجية في التعامل . فله سلوك مع أمام المسجد وآخر مغاير مع مدير المدرسة وسلوك ثالث مع أصدقائه ورابع عندما يغلق الباب على نفسه في غرفته إلى غير ذلك .. وهو أمر لن يتطور إلا بتطور الإعلام التربوي وتطوير

آلياته وبرامجه حتى يملأ فراغ الطالب ويقربه إلى مجتمعه ويمنع الازدواجية التي ربما تتكون لديه .

١٩ ـ كثير من البحوث الإعلامية أجريت حول التأثير الإيجابي والسلبي للإعلام على الأطفال وأختلف الباحثون في هذا الموضوع ومثال على هذا تأثير العنف في التليفزيون على الأطفال بحيث يرى بعضهم أن العنف في التلفزيون يقود إلى عنف في الواقع وفي المقابل يرى بعضهم أن العنف ليس له علاقة بذلك ويضربون مثلاً على ذلك المجتمع الياباني الأكثر أمناً رغم الكمية الكبيرة للعنف في برامجه التلفزيونية ، كل ذلك يتطلب إيجاد مركز متخصص للبحوث في مجال الإعلام التربوي يتولى دراسة مثل هذه العوامل ورفع التوصيات إلى اللجنة العليا للإعلام التربوي لتتولى متابعة الموضوع.

٢٠ ـ الاهتمام بتربية الأم تربية واعية ترتكز على الحوار وزرع الثقة بشخصيتها وإعدادها لتربية الأجيال ، وكونها مرتبطة بالطفل ارتباطاً وثيقاً نظراً لغياب الأب عن المنزل سعياً لكسب قوته وقوت عائلته ... ومتى ما كانت ثقافة الأم واسعة وشاملة فهي قادرة على التخاطب والحوار مع أبنائها بالصورة المثلى وكذلك القدرة على التعامل مع متغيرات الحياة فيما لو انفصلت عن زوجها أو ترملت ومعها أطفال .

أخيراً دعوني أذكر بعضكم بفيلم « دراكولا » الشهير بمصاص الدماء والذي يضرب به المثل بالجودة ، حيث آبهر ملايين المشاهدين بجودته الفنية وأسلوبه الدرامي المثير ، صغاراً وكباراً وعلى إختلاف مشاربهم ومستوياتهم الثقافية .

« دراكولا » المثير الذي يقفز على البيوت ويمص دماء البشر لا يوقفه إلا رفع الصليب أمامه ، فيذهل ويخاف ويهرب ...

إنها دعوة تبشيرية ولكن بطريقة إعلامية ذكية .. تدعو إلى إحترام الصليب وتقديسه .. فهل فكر أحد منا شاهد « دراكولا » وتابع أفلامه العديدة في مدى خطورة ذلك على النشيء ؟ .

أترك الإجابة عن هذا السؤال للضمائر المؤمنة الحريصة على مستقبل أجيالنا وما ينتظرهم من عمل إعلامي وتبعية وإعلامية منظمة .

زي الطيلسان
(دراسة تاريخية حضارية)

د/ غيثان بن علي بن جريس

إن البحث عن الطيلسان ـ شأن البحث عن الملابس العربية القديمة بصورة عامة ـ ليس بالأمر اليسير[١] . وقد حاولنا أن نرسم له صورة مقربة علي قدر توفر المادة الموجودة لدينا. وكان أول رجوعنا إلى المعاجم وكتب اللغة التي لم تفدنا كثيراً . حيث وصف الطيلسان في بعضها بأنه كساء معروف ، وفي بعضها الآخر أنه ضرب من الأكسية[٢] . وفي طائفة ثالثة جاء وصفه مضطربا لا يفهم منه وجه معين[٣] .

وقد وردت عنه الأخبار أنه كان من ملابس العرب في الجاهلية . حيث كان فرسانهم يلبسونه في المناسبات مثل مواسم الحج ، وعند انعقاد الأسواق كسوق عكاظ وذي المجاز[٤] . وإنهم ذكروه في أشعارهم ، وتأييداً لذلك أورد الجواليقي (٤٥٠هـ) هذه الأبيات عن ثعلب :

كُلّهمُ مبتكرٌ لشانِهِ ... كاعمُ لحييه بطيلسانِهْ
وآخرُ يزفُ في أعوانِهِ ... مثل زفيف الهيق في حفّانِهْ
فإن تلقاك بقيروانِهِ ... أو خفت بعض الجور من سلطانهْ

وذكر الثعالبي (٤٣٠هـ) الطيلسان في جملة أنواع من الثياب التي يكثر ذكرها في أشعار العرب[٥] إلا أنه لم يذكر شيء عن كيفية صنعه أو لبسه في العهد الجاهلي .

أما ما وصلنا عن الطيلسان في العهد الإسلامي الأول فيظهر لنا كثرة لبسهم له ، فجاء عن العسكري في كتاب الأوائل أن أول من لبس الطيلسان في الإسلام من العرب عبد الله بن عامر بن كريز (٥٩هـ) أو جبير بن مطعم (٥٤ أو ٥٩)[٦] . وذكر ابن رستة أن أول من لبس الطيلسان بالمدينة جبير بن مطعم[٧] . وقيل أيضاً أنه أول من لبس الطيلسان المقور[٨] .

وقد وردت أسماء عدد غير قليل ممن لبس الطيلسان في هذه الفترة، إلا أن طريقة لبسهم له مضطربة غير واضحة فقد جاء عن « إبراهيم بن زيد الأسود النخعي أنه كان يضع قلنسوة من طيالسة في مقدمها جلد ثعلب »[٩] وذكر أنه كان للنبي (صلى الله عليه وسلم) « جبة طيالسة لبنتها ديباج كسرواني »[١٠] . وأن أعرابياً أتى النبي (صلى الله عليه وسلم) وعليه « جبة من طيالسة »[١١] . ونص آخر عن عمر بن عبد العزيز أنه « يصلي في جبة طيالسة ليس عليه إزار »[١٢] . ونص آخر مشابه لهذا عن عبد الرحمن بن الأسود « أنه كان يسجد في برنس طيالسة ويداه فيه أو في ثيابه »[١٣] . فكان القلنسوة والجبة والبرنس المذكورة في هذه النصوص ، مصنوعة من قماش الطيلسان ، أو أن الطيلسان جعل بشكلها . وأظن أن المعنى الثاني هو الصحيح بدليل ورود خبر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه كان يلبس في الحرب من القلانس ما يكون من السيجان (جمع ساج) وهو الطيلسان الأخضر[١٤] . وورد خبر آخر عن الحسن أنه كان « يضع طيلسانه على شقه الأيمن »[١٥] . فلولا ورود أنواع من أقمشة الطيالسة ، كما سنأتي على ذكرها ، لقلنا بأن المقصود من الطيالسة هنا نوع معين من القماش وهو الذي تصنع منه الطيالسة . لذا فالراجح أن الطيلسان كان يلبس بأشكال مختلفة حسب رغبة الشخص، فقد يجعل بشكل قلنسوة[١٦] على الرأس أو يتلفع به بشكل من الأشكال ومما يؤيد ما ذهبنا إليه ورود خبر عن أزواج النبي (صلى الله عليه وسلم) أنهن حججن في خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فكان « على هوادجهن الطيالسة الخضر »[١٧] . فالطيلسان إذن لم يكن نوعاً معيناً من القماش إنما ثوب معين يتخذ بأشكال مختلفة . وبهذا المعنى شرحه صاحب المعيار بقوله «إنه ثوب يلبس على الكتف، أو ثوب يحيط بالبدن، ينسج للبس ، خال من التفصيل والخياطة »[١٨] .

ويبدو أن الأشراف كانوا لا يكتفون بوضع طيلسان واحد ، بل قد يحملون معهم طيلسانا آخر خاصة عند ذهابهم إلى المسجد حيث يطوونه ويتكئون عليه ، ويرون بأن عملهم ذلك من فعل الأشراف وأهل المروءة[١٩] . وقد يرتدونه مع الإزار[٢٠] ، أو مع الجبة[٢١] .

ولم تكن الطيالسة متشابهة في أطوالها فبعضها طويل والآخر قصير ، تبعاً لرغبة الفرد أو شكل جسمه أو ربما لحالته المالية . فقد ورد عن كريب بن أبي مسلم (مولى

عبد الله بن العباس بن عبد المطلب) أنه وأصحابه يلبسون طيالسة طوالاً أزرارها من ديباج[٢٢] . وأنهم كانوا يجعلونها من الديباج لكي تبقي مدة طويلة[٢٣] . ولبس بعضهم طيالس من الخز ، وكانت تسمى البت (وبائعه يسمى البتى)[٢٤] . أما بالنسبة لمن لبس طيالسة الديباج فإنهم اختلفوا في شكل أزرار الديباج ، فجعلها قوم طويلة وجعلها آخرون قصيرة[٢٥] . كما أنهم اختلفوا في كيفية ارتدائها فكان فريق منهم يزررها ، وفريق يتركها من دون تزرير حتى في الإحرام[٢٦] .

أما أنواع الطيالسة التي ورد ذكره فمنها الطيالسة الكردية[٢٧] . ويبدو أن هذا النوع من الطيالسة كان جيداً ، وغالي الثمن فقد بيع واحد منها بمائة درهم . وقيل عنها إنها تدوم مدة طويلة من الزمن تبلغ الثلاثين سنة[٢٨] . ووصف نوع آخر بأنه نصيبي أي من نصيبين كما جاء في شعر لأعشى همدان في خالد بن عتاب والي الحجاج على الري حيث قال[٢٩] .

تُمَنِّيني إمارتَها تميمُ وما أُمِّي بأمِّ بني تميم وكان

أبو سليمان خليلي ولكنَّ الشراك من الأديم

ثم يقول :

وليس عليك إلا طيلسانٌ نصيبيٌّ وإلا سحْقُ نيم

أما ألوان الطيلسان فكانت مختلفة ، فمنها الأخضر، وكان يسمى ساجا[٣٠] . وقيل الساج الطيلسان الأسود[٣١] . ومنها الأبيض كان من ملابس الأحداث ، وأنه لم يكن يستحسن لبسه عند الدخول على كبار الناس كالخلفاء[٣٢] . ومنها الأزرق[٣٣] .

وقد انتسب إلى الطيلسان جماعة من أهل الحديث منهم أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي « أصله من فارس » سكن البصرة وتوفي سنة ٢٠٣هـ ،وأبو الوليد هشام بن عبد الملك الطيالسي « مولى باهلة من أهل البصرة ، توفي سنة ٢٢٧هـ »، وأبو عبد الله محمد بن أبراهيم بن زياد بن عبد الله الطيالسي « وكان جوالاً ببغداد ومصر وطرسوس »، وأبو بشر حوشب بن مسلم الثقفي الطيالسي « من أهل البصرة »[٣٤] . ولكننا لا نعلم إن كانت هذه النسبة إلى الطيلسان متأتية من صنعه أو من لبسه . وفي الحالين فإنها تدل على استعماله في مدينة البصرة في ذلك الوقت .

ثم شاع لبس الطيلسان بين فئات مختلفة من الناس فلبسه الأدباء[٣٥] ،

والولاة[٣٦] ، والكتاب [٣٧] ، والخطباء[٣٨] ، والمدرسون ، والأشراف[٣٩] ، والعلماء والقضاة [٤٠] ، وطلبة العلم . فقد جاء عن أبي سليمان داود بن علي الأصبهاني (٢٩٠هـ) وكان زاهداً عالماً ، انتهت إليه رياسة العلم ببغداد ـ أنه كان في مجلسه أربعمائة صاحب طيلسان أخضر[٤١] . ولبسه الوعاظ[٤٢] ، والفقهاء ، جاء عن مدينة قرطبة في عهد الملثمين[٤٣] ، أنه كان فيها أثنا عشر ألف مُفْت[٤٤] وأنه حصر عددهم بلبس الطيلسان ، إذ كان لا يلبس الطيلسان إلا مُفْت . كما لبس الطيلسان بعض شيوخ الصوفية كالشيخ عبد القادر الجيلي (٥٦١هـ)[٤٥] .

وقد وصف المقدسي (٣٥٠هـ) أهل العراق في عهده بأن من رسومهم التجمل والتطيلس إلا أنه لم يحدد الناس الذين كانوا يتجملون ويتطيلسون ، بل جاء كلامه عاماً[٤٦] . ثم وردنا قول لإمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله (٤٧٨هـ) عن السوقة ببغداد أنهم اعتادوا التحنك والتطيلس كالفقهاء . وأن ذلك في رأيه خرم للمروءة[٤٧] . وقول إمام الحرمين يؤكد وصف المقدسي عن شيوع لبس الطيلسان في العراق والاهتمام به . ولعل لبس العوام للطيلسان كان بداعي التقليد للعلماء والفقهاء والقضاة ، وطلبة العلم . الذين كانوا أكثر شهرة بلبس الطيلسان[٤٨] . حتى أصبح صفة لهم ، فيكفي أن يقال أصحاب الطيالس فيعرف الناس أنهم هم المقصودون بذلك[٤٩] . ولعل شيوع القول « جمال الرجل في طيلسانه ، وفي طي لسانه »[٥٠] ، كان من العراق . نتيجة لشيوع استعمال الطيلسان .

ولم يكن للطيلسان نفس الأهمية في بعض البلاد الأسلامية ، فنرى المقدسي نفسه الذي مر وصفه لأهل العراق يقول في مدينة شيراز « لا مقدار لأهل الطيالسة بها وذلك لأنه لباس الشريف والوضيع والعالم والجاهل ، وكم قد رأيت بها من سكارى قد بعثروا بطيالسهم وسحبوها . وكنت إذا استأذنت على الوزير وأنا مطيلس حُجبت إلا إذا عُرفت. وإذا أتيتُ بدراعة أذن لي »[٥١] . مما يدلنا على أن الطيلسان قد لبس في هذا البلد من قبل معظم الناس على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم الاجتماعية والاقتصادية .

ونظراً لاتخاذ العلماء والفقهاء الطيلسان ، أصبحوا لا يرتاحون لتقليد العامة لهم في ارتدائه . وعدُّوا لبس العامة كالحمالين والشرطة والكناسين للطيلسان خرماً للمروءة[٥٢] .

ثم كان من نتيجة تمسك أصحاب الطيلسان بلبسهم ، أن تميزوا عن رجال الحكم

كالكتاب والوزراء ، الذين استعاضوا عن الطيلسان بالدراعة[٥٣] . فقد جاء عن الخليفة المقتدر بالله (٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ) أنه اقترح عليه تقليد أبي عمر محمد بن يوسف القاضي (٣٢٠هـ) الوزارة فقال « لعمري إنه عالم ثقة ، إلا أنني لو فعلت ذاك لافتضحت عند ملوك الإسلام والكفر به لأنني كنت بين أمرين إما أن تتصور مملكتي بأنها خالية من كاتب يصلح للوزارة ، فيصغر الأمر في نفسهم . أو أنني عدلت عن الوزارة إلى أصحاب الطيالس ، فأنسب إلى سوء الأختيار »[٥٤] . وجاء عن أحمد بن علي أبي الحسن البتي (٤٠٣هـ) « إنه كان في بدء أمره يلبس الطيلسان ويسمع الحديث ويقرأ القرآن على شيوخ عصره . ثم لبس من بعد الدراعة ، وسلك في لبسه مذاهب الكتاب القدماء . وكان يلبس الخفين والمبطنة ويتعمم العمة الثغرية ... وذلك عندما أصبح كاتباً للخليفة القادر بالله ثم صاحب الخبر والبريد في الديوان القادري[٥٥] .

ويبدو أن ابتعاد رجال الحكم عن لبس الطيلسان لم يكن مقصوراً على العراق بل شاركه غيره من الأقطار . فقد جاء عن الوزير الأديب المعروف الصاحب ابن عباد (٣٨٥هـ) أنه عزم على إملاء الحديث وهو وزير « فخرج يوماً متطلساً متحنكاً بزي أهل العلم ، فقال : قد علمتم قدمي في العلم ، فأقروا له بذلك ... ثم اتخذ لنفسه بيتاً أسماه بيت التوبة . ولبث أسبوعاً على ذلك ، ثم أخذ الفقهاء بصحة توبته . ثم خرج وقعد للإملاء ، وحضر له خلق كثيرٌ »[٥٦] .

وكان الناس يتهادون بالطيالس[٥٧] وهذا هو الذي يفسر لنا اعطاءه خلعة من دار الخلافة[٥٨] . فعن الخليفة المقتدر بالله أنه خلع على رسولين لملك الدولة البيزنطية جاءا إلى بغداد سنة ٣٠٥هـ جملة خلع كان فيها طيالسة[٥٩] . ولأهميته هذه كهدية تعطى للأصدقاء أو الغرباء ، إضافة إلى اقتنائه للبس رأينا بعضهم يحتفظ بأعداد كبيرة منه . فقد جاء عن الرشيد أنه خلف بعده في الخزائن أموالاً كثيرة كان فيها ألف طيلسان[٦٠] . وورد عن الوزير أبي الحسن علي بن محمد بن الفرات أنه بعد صرفه عن الوزارة الأولى في سنة ٢٩٩هـ وجد في خزائنه ألف ومائة طيلسان[٦١] . وعن القاضي عبد الجبار بن أحمد المعتزلي (٤١٥هـ) أنه صودرت أمواله فبيع من جملة أثاثه ألف طيلسان[٦٢] .

ونظراً لشيوع لبس الطيلسان واهتمام الناس به فقد عني به الفقهاء فقسمه بعضهم إلى قسمين ، الأول الطيلسان المحنك ، وهو ثوب طويل عريض قريب من طول الرداء ، مربع يجعل على الرأس فوق العمامة أو القلنسوة ويغطي به أكثر الوجه ثم يدار طرفان

منه تحت الحنك إلى أن يحيط بالرقبة جميعاً ثم يلقيان على الكتفين . أما طرفاه الآخران فإنهما يدليان على الظهر(٦٣) . وأن هذا النوع هو المسموح به في حضور الجمعة ، ومجامع الناس . وهو الذي قال به غير واحد من أئمة الشافعية والحنابلة وغيرهما .

أما الثاني فهو الطيلسان المقور ، الذي اعتبر لبسه مكروهاً . وكان على أشكال منها المدور ، والمثلث ، والمربع المسدول . ويختلف هذا الطيلسان عن سابقه في كونه يوضع على الرأس ويرسل طرفاه على الصدر من دون أن يدارا من تحت الحنك ويلفا حول الرقبة ، كما أن طرفيه المكفوفين يرسلان من وراء الظهر(٦٤) .

وتكمن كراهة لبس هذا النوع من الطيلسان (في رأي بعض الفقهاء) في كونه من شعار اليهود ، ولأن فيه السدل المكروه في الصلاة . علماً بأن بعض فقهاء الشافعية والحنفية لم يجيزوا لليهود أصلاً لبس الطيلسان ، إذ عَدُّوه من أجلِّ لباس المسلمين . إلا أن أبا يعلي الحنبلي (٤٥٨هـ) جوز لأهل الذمة ليس هذا النوع من الطيلسان(٦٥) .

ومن الجدير بالملاحظة أن بعض الأتقياء لم يضعوا الطيلسان على رؤوسهم لمجرد إضفاء الهيبة على أنفسهم أو الظهور بمظهر حسن بل تواضعاً وتديناً في اعتقادهم ، حيث كانوا يسبلونه على جباهم ويغطون شطراً من وجوهم(٦٦) . ويبدو أن طريقة الأتقياء هذه كانت شائعة لذا رأينا السمعاني (٥٦٢هـ) يصف الطيالسة بأنها « هي التي تكون فوق العمامة »(٦٧) واكتفاؤه بهذا الوصف يعكس لنا شيوع استعمالها بهذا الشكل ، اتباعاً للسنة حيث ورد عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه كان يرخي الثوب على رأسه أو يقنع رأسه في بعض الأحيان . وكذلك ورد عن أبي بكر أنه شوهد يتلفع حياءً من الله . وقد استفاد رجال السياسة من طريقة الأتقياء هذه في لبس الطيلسان ، في تخفيهم ومؤامراتهم فعن الوزير ابن مقلة أنه اتفق مع الخليفة الراضي على تولي الوزارة له سنة ٣٢٦هـ ، ومن ثم التنكيل بأمير الأمراء ابن رائق وأن الخليفة أخبره بأن يأتيه سراً ليدبر الأمر معه ، لذلك وضع على رأسه طيلساناً ثم خرج من داره وذهب إلى الخليفة(٦٨) .

وأظن أن الطيلسان قد استمر عبر العصور حتى وقتنا الحاضر ، وأنه هو الذي يضعه العلماء والقراء وبعض وجوه الناس على رؤوسهم أو أكتافهم ، ويسمونه في مصر والعراق بالشال ، وربما في السعودية ودول الخليج الآخرى بالمشلح أو (البشت) .

الحواشي والتعليقات

١ ـ وللمزيد من التفصيلات عن الملابس العربية انظر . رينهارت دوزي . **المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب** . ترجمة ، أكرم فاضل (بغداد ، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م) ، صلاح حسين العبيدي . **تاريخ اللباس العربي في العصر العباسي الثاني من المصادر التاريخية والأثرية** (رسالة دكتوراة مقدمة إلى قسم الآثار الإسلامية بكلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م) ، صالح أحمد العلي . « الأنسجة في القرنين الأول والثاني » **مجلة الأبحاث**، جـ ٤ ، لسنة (١٤) (بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٦١م)، وللمؤلف نفسه . « الألبسه العربية في القرن الأول الهجري » **مجلة المجمع العلمي العراقي** . مج ١٣ (بغداد، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م) ، غيثان بن علي بن جريس . **بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية** . تقديم ومراجعة الأستاذ الدكتور / سعيد عبد الفتاح عاشور ، رئيس اتحاد المؤرخين العرب ، (الإسكندرية : دار المعرفة ، ١٩٩٤م) جـ١ ، ص ٢٠٣ـ٢٢٩ وللمؤلف نفسه « أهم الملابس العربية خلال العهود الإسلامية الأولى » **مجلة المنهل** . العدد (٤٩٨) مج ٥٤ (صفر ١٤١٣هـ/١٩٩٢م) ص ٧٨ـ٩٥ .

٢ ـ انظر المعاجم اللغوية العربية المشهورة ، (مادة طلس) في معجم لسان العرب لابن منظور ، والاشتقاق لابن دريد ، وتاج العروس للزبيدي .

٣ ـ انظر كتاب المخصص لابن سيدة (منشورات المكتب التجاري ببيروت) مج ٤ ، ص ٧٩ .

٤ ـ المصدر نفسه ، وللمزيد من التفصيل انظر . غيثان بن علي بن جريس . **بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية** ، جـ ١ ، ص ٢٠٣ وما بعدها .

٥ ـ انظر لتفصيلات أكثر ، الجواليقي : **المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم** . تحقيق أحمد محمد شاكر (القاهرة : دار الكتب العربية ، ١٣٦١هـ) ص ٢٢٧ـ٢٢٨ .

٦ ـ ابن رستة ، **الأعلاق النفسية** . تحقيق ام . دي . غوي (ليدن : مطبعة بريل ، ١٨٩١هـ) ص ١٩٢ والطيلسان ضرب من الأكسية ، انظر ابن منظور . اللسان (مادة طلس) ، ويقول دوزي : الطيلسان نوع بسيط من الخمار الذي يطرح على الرأس والكتفين ، أو يلقي أحياناً على الكتفين فقط . انظر :ـ دوزي . المعجم المفصل ، ص ٢٢٩ .

٧ ـ انظر ابن رستة ، **الأعلاق النفسية** ، ص ١٩٢ ، وللمزيد من التوضيحات انظر . عبد الله السيف . **الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي** . (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م) ص ٢٨٠ـ٢٨١ .

٨ ـ المصدران نفسهما .

٩ ـ محمد بن سعد . **الطبقات الكبرى** (اعتناء سخو ، بمطابع بريل في مدينة ليدن بهولندا) جـ ٥ ، ١٣٥ ، جـ ٦ ، ص ١٩٦ .

١٠ ـ انظر ابن منظور . **لسان العرب** (مطبعة بولاق بالقاهرة ، ١٣٠٧هـ) جـ ٣ ، ص ١٢٦ـ١٢٧ .

١١ ـ وللمزيد من التفصيلات انظر ، أحمد بن حنبل . **المسند شرح أحمد شاكر** (القاهرة : دار المعارف ،

١٣٩٤/١٩٧٤م) . تصوير دار صادر بيروت (القاهرة ، ١٣١٣هـ) جـ ٦ ، ص ٣٤٨ـ٣٥٤ .

١٢ ـ المصدر نفسه ، جـ ٣، ص ٢٢٥ـ٢٢٦ .

١٣ ـ وللمزيد انظر ، ابن سعد . **كتاب الطبقات** ، جـ ٦ ، ص ٢٩٨ .

١٤ ـ المصدر نفسه ، جـ٦ ، ص ٤٩ـ٥٠ وللمزيد انظر ، عبد الله السيف . **الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي** . ص ٢٨٠ـ٢٨١ ، غيثان بن علي بن جريس . « أهم الملابس العربية خلال العهود الإسلامية الأولى » ص ٨٠ وما بعدها .

١٥ ـ المرجع نفسه .

١٦ ـ المرجع نفسه ، للمزيد من التفصيلات انظر المقالتان الخاصة بالدكتور / صالح أحمد العلي والتي ورد ذكرهما في الملاحظة رقم (١) من حواشي هذا البحث .

١٧ ـ انظر ابن سعد . **كتاب الطبقات** ، جـ ٨ ص ١٥١ .

١٨ ـ وللمزيد من التفصيلات انظر، **كتاب البيان والتبيين** ، للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون (القاهرة ، ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م) جـ ٢ ، ص ٣٤٢ .

١٩ ـ المصدر نفسه ، جـ ٥ ، ص ٢٣٧ .

٢٠ ـ المصدر نفسه ، جـ ٥ ، ص ١٠٢ .

٢١ ـ انظر أحمد اليعقوبي ـ **تاريخ اليعقوبي** (بيروت ، ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م) جـ ٢ ، ص ٠ ، ١٨٩ .

٢٢ ـ ابن سعد ، **كتاب الطبقات** جـ ٥ ، ص ٢١٦ ، جـ ٦ ، ص ٨١ .

٢٣ ـ المصدر نفسه ، جـ ٥ ، ص ١٠٣ .

٢٤ ـ الفيروز ابادي ، **القاموس المحيط** (القاهرة : مطبعة شركة فن الطباعة ، ١٣٣٢هـ / ١٩١٣م) جـ ١ ، ص ١٤٢ .

٢٥ ـ ابن سعد، **كتاب الطبقات** ، جـ ٦ ص ٧٢ .

٢٦ ـ المصدر نفسه ، جـ ٥ ، ص ١٣٤ ، انظر أيضاً ، جـ ٦ ، ص ١٨٧ .

٢٧ ـ المصدر نفسه ، جـ ٥ ، ص ١٦١ .

٢٨ ـ المصدر نفسه جـ ٤ ، ص ١٢١ .

٢٩ ـ انظر كتاب البغال ضمن رسائل الجاحظ ، نشر عبد السلام هارون (القاهرة ، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م) جـ ١ ، ص ٠ ، ٢٩٤ .

٣٠ ـ للمزيد انظر ، ابن سيدة كتاب المخصص ، جـ ٤ ، ص ٠ ، ٧٩ .

٣١ ـ لسان العرب لابن منظور (مطبعة بولاق ، ١٣٠٧هـ) جـ ٣ ، ص٠ ، ١٢٦ .

٣٢ ـ كتاب البيان والتبيين للجاحظ، جـ ٢ ، ص ٣٤٢ .

٣٣ ـ وللمزيد من التفصيلات انظر . **نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة** (القاهرة، ١٩٢١م) جـ ١ ، ص١٠٢ .

٣٤ ـ **كتاب الأنساب** ، للسمعاني . تحقيق مارجيلوث (لندن ،١٩١٢م) ص ٠ ، ٣٧٥ .

٣٥ ـ انظر ، كتاب التحف والهدايا ، للخالديان . تحقيق ، سامي الدهان (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٦م) ص . ١٣٤ .

٣٦ ـ الجاحظ ، **كتاب البغال** ، جـ ١ ص . ٢٩٤ .

٣٧ ـ المصدر السابق ، ص ١١٨ ، وللمزيد انظر ، ياقوت الحموي . **معجم الأدباء** (القاهرة ، ١٩٢٣م) جـ ١ ، ص ٢٣٤ .

٣٨ ـ المصدر نفسه .

٣٩ ـ للمزيد من التفصيلات ، انظر الخطيب البغدادي ، **تاريخ بغداد أو مدينة السلام** . (القاهرة : مطبعة السعادة ، ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م) جـ ١٣ ، ص ١٤٦ .

٤٠ ـ المصدر نفسه ، جـ ٧ ، ص ٢٦٩ .

٤١ ـ المصدر نفسه .

٤٢ ـ انظر كتاب الرحلة لابن جبير (بيروت ، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م) ص ١٩٨ .

٤٣ ـ الملثمون : هم المرابطون ، اصحاب دولة يوسف بن تاشفين الذي توفي سنة (٥٠٠هـ/١١٠٦م) مخلفاً بعده امبراطورية هائلة في المغرب والأندلس . انظر ، ليفي بروفنسال . الإسلام في المغرب والأندلس ، ص ٢٤١ .

٤٤ ـ المرجع نفسه ، ص ٢٤٢ وما بعدها .

٤٥ ـ المرجع نفسه . وللمزيد انظر ، غيثان بن علي بن جريس . **بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية** ، جـ ١ ، ص ٢٠٩ وما بعدها .

٤٦ ـ انظر ، **كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** ، للمقدسي . (ليدن مطبعة بريل ، ١٩٠٦م) ص ١٢٩ .

٤٧ ـ المصدر نفسه .

٤٨ ـ انظر كتاب نشوار المحاضرة ، للتنوخي جـ ١ ، ١٠٢ ، ١١٦ .

٤٩ ـ المصدر نفسه ، جـ ١ ، ١٦ـ١٧ ، وللمزيد انظر ، **كتاب الوزراء**، للصابي ، (القاهرة ، ١٩٥٨م) ص ٣٤٨ ، ياقوت الحموي . **معجم الأدباء** ، جـ ٢ ، ص ٣١٢ .

٥٠ ـ المصدر نفسه .

٥١ ـ المقدسي ، **أحسن التقاسيم** ، ص . ٧ .

٥٢ ـ المصدر نفسه .

٥٣ ـ الدراعة :ـ ويقال المدرعة أيضاً وهي نوع من أنواع الجبب تكون من الصوف بصورة خاصة ، انظر ، ابن سيدة ، كتاب المخصص ، جـ ٤ ، ص ٣٦ ، الفيروز أبادي ، القاموس المحيط ، جـ٣ ، ص ـ٢٠ .

٥٤ ـ الصابي ، **الوزراء** ، ص . ٣٤٨ .

٥٥ ـ ياقوت الحموي . **معجم الأدباء** ، جـ ١ ، ص ٢٣٤ .

٥٦ ـ المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص . ٣١٢ .

٥٧ ـ الخالديان ، **كتاب التحف والهدايا** ، ص . ١١٨ .

٥٨ ـ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص . ٣١٢ .

٥٩ ـ انظر ، **كتاب الذخائر والتحف** ، للقاضي الرشيد . (الكويت ، ١٩٥٩م) ص . ١٣٩ .

٦٠ ـ المصدر نفسه ، ص . ٢٢٩ .

٦١ ـ المصدر نفسه .

٦٢ ـ المصد نفسه ، كما انظر ابن الأثير ، **الكامل في التاريخ** ، جـ ٩ ، ص . ٤١ .

٦٣ ـ المصدر نفسه .

٦٤ ـ القاضي الرشيد ، **الذخائر والتحف** ، ١٤١ ، غيثان بن علي بن جريس . « أهم الملابس العربية خلال العهود الرسلامية الأولى » ص ٨٣ وما بعدها .

٦٥ ـ المصادر نفسها .

٦٦ ـ رحلة ابن جبير ، ص ١٩٨ .

٦٧ ـ **كتاب الأنساب** ، للسمعاني ، ص ٣٧٥ .

٦٨ ـ الهمداني ، تكملة تاريخ الطبري ، ص ١٠٩ .


قضية ورأي

التعبير بالرمز في الشعر العربي المعاصر

د/ أحمد محمد حنطور

يدور المعنى اللغوي للرمز حول الإيماء إلى الشيء والإشارة إليه والدلالة عليه ،وهو يطلق عند البلاغيين على ما يعرف بالكناية الخفية. وقد ارتكز الشاعر العربي القديم على ذلك المفهوم اللغوي والبلاغي باستعمال الرمز في مورد التعبير غير المباشر عن الأشياء ، آو التعبير عن شيء بشيء آخر يدل عليه . وتتمثل جذور هذا الاستعمال فى تلك القصائد التى دبجها يراع الشاعر العربى القديم ، وأشار فيها إلى : زرقاء اليمامه، وريح الصبا ، والشمس والقمر ، وأومأ إلى الحمامة والغربان ، والغزال والأسد. ودل على الشجاعة والسماحة والحلم والذكاء بالمثل المعبرة عنها في الحياة العربية .

مثل قول أبي تمام :

إقدام عمرو في سماحة حاتم   في حلم أحنف فى ذكاء إياس

وقول المتنبي :

رحلت فكم باك بأجفان شادن   علي وكم باك بأجفان ضيغم

لكن الشاعر العربي المعاصر وهو في رحلة البحث عن وسائل فنية جديدة في البناء الفني لقصيده وجدناه يتأثر باتجاه الرمزين الغربيين الذين يرون :« أنه لاينبغي للشاعر أن يستنفد كل ما في وجدانه ليسكبه في وجدان الآخرين ، بل عليه أن يوحي إلى نفوسهم عن طريق الصورة والموسيقى حالات نفسية تثير فيها إحساسات مشابها لما يحس به الشاعر .

ولعل نظير هذا أو مايقرب منه فى شعرنا العربى قول الشاعر :

عشية مالي حيلة غير أنني   بلقط الحصى والخط في الترب مولع

أخط وأمحو الخط ثم أعيده   بكفي ، والغربان في الدار وقع

فإن قوله : «والغربان في الدار وقع » تعبير قصد به الشاعر أن يوحى به إلى نفوس السامعين حالات تثير فيها جوا جد فسيح ، تزدحم فيه الذكريات والصور ، وتتلاقى على ساحته مشاهد من الخراب والدمار اللذين خيما على منزل الحبيبة وملاعب

الصبا .وكل ذلك بدوره يثير في نفس القارىء صورا لاتقع بعيدا عن مثيلاتها التي تزدحم بها نفس الشاعر »[١] .

ومثل تلك النماذج المعبرة من تراثنا الشعري تهيب بنا أن نستبطن كنوزه ، ونتعرف على لأئه ، ونستهدي بضوئه في تطور القيم الفنية في الشعر العربي الحديث ، لا أن نتكلم بغير لغتنا ، ونفكر بعقول غيرنا فنبدو غرباء عن أنفسنا عالة على الآخرين .

ومن غير المستطاع - في هذا المقال - تتبع أبعاد مذهب الرمزية في الشعر العربي المعاصر تاريخا وفنا ،ولكننا سنقف عند ملمح استعانة الشاعر بالرمز في بناء هيكل تجربته ، وذيوعها في الشعر المعاصر ، فقد تحمس الشاعر المعاصر لذلك المنحى ، ونوع فيه وأكثر ، وغرس في واديه وأثمر ، حتى أضحى التعبير بالرمز من أهم الظواهر البنائية في شعرنا الحديث .

والمقصود بالتعبير بالرمز هو اتخاذ الرمز الشعري وسيلة لحمل الرؤى والأفكار، والتعبير عن الوجدان الداخلي الذي يعيشه الشاعر تجاه موضوعه ، فهو أداة تصوير كاشفة عن طبيعة التصور ، ومعادل خارجي لما انطوى في داخله من أحاسيس .

فالأغنية الأولى من قصيدة الدكتور صابر عبد الدايم : ثلاث أغنيات للشراع ، نراه يقول فيها :

ياشراع الرجاء رفقا بنفسي ... إنها الآن نهب طوفان يأسي
ثورة الموج ما خشيت ولكن ... كل ما أخشى أن تبدد شمسي
ورياح المغيب تطفي شموعي ... وضجيج الغروب يقتل همسى
وسموم الظلام تردي صباحي ... وأفاعي الشكوك تقتل حسي
وتلال الغيوم تحجب أفقي ... وليالى الأسى تبدد أنسي
ورؤى خاطرى تصير سرابا ... والأمانى الحسان تلقى برمسى
ولهيب العذاب يحرق قلبى ... ويوارى جمال يومى وأمسى
والمزامير والشموع وباقا ... ت زهورى وكل إغراء كأسي
كل ما أخشى أن أراها رمادا ... وظلاما يطيل من ليل يأسى
عندما يصبح الصباح غروبا ... هل سيمحو الغروب طول التأسي[٢]

حيث محور القصيدة « شراع الرجاء » والرموز المستمدة من الطبيعة الدالة على عذابات الشاعر المحيطة بأقطار نفسه المتنامية فى داخله ، والصور الشعرية الثرية الدلالة على تمسكه بالحياة ؛ تكشف عن ذلك الوجدان المتأجج بالصراع ، وموقفه المتطلع فى عزم ويقين إلى الوصول بشراعه إلى مرافىء الأمل .

وفي سبيل تحقيق هذه الغاية أخذ الشاعر العربي يضرب فى جنبات الحياة - زمانا ومكانا ، وواقعا وخيالا ، وأحداثا وأشخاصا - بحثا عن تلك الرموز المكتنزة المعاني الثرية بالدلالة الناهضة بالتعبير عن أحساسيه ورؤاه .

فنراه يسترفد رموزه التصويرية حينا من التراث ، « باعتبار هذا التراث منجم طاقات إيحائية لاينفد له عطاء ، فعناصر هذا التراث ومعطياته لها من القدرة على الإيحاء بمشاعر وأحاسيس لاتنفد ، وعلى التأثير في نفوس الجماهير ووجداناتهم ماليس لأية معطيات أخرى يستغلها الشاعر ، حيث تعيش هذه المعطيات في وجدانات الناس وأعماقهم تحف بها هالة من القداسة والإكبار ؛ لأنها تمثل الجذور الأساسية لتكوينهم الفكري والوجداني والنفسي ، ومن ثم فإن الشاعر حين يتوسل إلى إيصال الأبعاد النفسية والشعورية لرؤيته الشعرية عبر جسور من معطيات هذا التراث فإنه يتوسل إلى ذلك بأكثر الوسائل فعالية وقدرة على التأثير والنفاذ »(٣) .

ويستوي في ذلك أن يكون التراث محليا أو عالميا ، أو أحداثا أو أشخاصا ، فلذلك الامتداد سبيله عند الشاعر المعاصر الذي يؤمن باتساع البعد المعرفي لديه ، وتوحد الثقافة العالمية في كيانه ، ومن ثم وجدنا التصوير برمز : كليب ، وعنترة ، وامرىء القيس ، وعبدالرحمن الداخل ، والمتنبي ، ومحمد ، والمسيح ، وبلال ، وعمر بن الخطاب ، وعلى بن أبي طالب ، وأبي ذر الغفاري ، والحسين ، ومهيار الديلمي ، وأبي نواس ، وبلقيس ، والخيام ، وهرقل ، وجنكيز خان ، والتتار ، والبسوس ، وداحس والغبراء ، وحطين ، وعين جالوت .

وإذا كان الشاعر يعتمد في استخدام الرموز التراثية على ذلك القدر المشترك من المعرفة والثقافة الذي ينبغي أن يجمع بينه وبين القارىء ، ويتيح لقارئه أن يفهم الرمز أو يقوى على القيام بترجمته ترجمة دقيقة ، فإن ثمة معاصرة له مع قارئه ، وثمة مواضعات حياتية رسخت في وجودهما واستقرت دلالاتها في حياة الناس ، ومن ثم أضحت تشكل رموزا قوية موحية لاتخفى دلالاتها ولاتحد أبعادها . ومن هنا كان

استرفاده الرمز من الواقع المعيش ، حين تتبع الأحداث والأشخاص والظواهر الطبيعية التي حملت رصيدا كبيرا من الدلالات ، وتركت أثرا كبيرا في العقول والنفوس ، ليجعل منها معادلا موحيا بما يموج فى داخله من رؤى وأحاسيس . نجد ذلك في استخدام رمز: المدينة، والزمن ، والمطر ، والخضرة ، والموت ، والطفل ، والسحاب ، والرعد ، والجليد، والرياح ، والرمل ، والربيع ، والخريف ، والفجر ، والضحى ، والليل ، والشمس، والقمر، والورد ، والنسيم ، وجميلة ، وفلسطين ، وحزيران ، وأكتوبر . وهناك مدخل آخر لاسترفاد الشاعر رموزه بعيدا عما سبق ، وهو الأخذ من عالم الوهم أو الأساطير ، وذلك أن « العلاقة بين الفن والأسطورة علاقة قديمة ، فكم كانت الأساطير مصدر إلهام الفنان والشاعر ، وكم بين أيدينا من الأعمال الفنية والشعرية ما هو صياغة جديدة لأسطورة من الأساطير القديمة » (٤) . ومن هنا عمد الشاعر المعاصر إلى « اتخاذ الأسطورة قالبا رمزيا يمكن فيه رد الشخصيات والأحداث والمواقف الوهمية إلى شخصيات وأحداث ومواقف عصرية ، وبذلك تكون وظيفة الأسطورة تفسيرية استعارية، أو إهمال شخصياتها وأحداثها والاكتفاء بدلالة الموقف الأساسى فيه بغية الإيحاء بموقف آخر يماثله ، وبذلك تكون الأسطورة رمزية بنائية ، تمتزج بجسم القصيدة وتصبح إحدى لبناتها العضوية » (٥) .

وفي مجرى هذا الرافد توالى استخدام رموز الآساطير الشرقية والغربية في بناء القصيدة المعاصرة . حيث كان الرمز الأسطوري : السندباد ، شهر زاد ، شمشون الجبار، جلجامش ، الغول ، العنقاء، التنين ، جنية الشاطىء ، تموز ، عشتروت ، أورفيوس، سيزيف ، فاوست، أفروديت ، ميدوزا ، بروميثيوس ، إيزيس وأوزيريس ، بجماليون، فينوس، أبولو ، أوديب .

بيد أن الشاعر المعاصر حين استخدم تلك الرموز واتكأ عليها في نقل أبعاد تجربته إلى المتلقى لم يقف عند استدعاء الرمز ووضعه في البناء الشعري مقابلا لما في نفسه، بل كانت له وسائله المتنوعة في التعامل مع ذلك الرمز ، تلك التي جعلت دوره يتخطى أن يكون وسيلة من وسائل تشكيل الصورة إلى التعبير بالرمز عن تجربته الشعرية .

فقد يستعمل الرمز فى النص الشعري استعمالا يقف عند مدلوله الرمزى الذي اكتسبه عبر العصور مثل رمز السندباد الذي « جرى على ألسنة الشعراء ، ومعظمهم استخدمه الاستخدام المألوف القائم على أن السندباد رمز للتجوال فى الآفاق والعودة

إلى الديار بغية إيجاد أسباب الإصلاح والتغيير » . وقد يتخذه الشاعر أداة لإفراغ تجربته الشعرية ، ولاغرو أن يكتسب معنى جديدا يستمد من نفس الشاعر كالسياب الذى حمّله مغزى جديدا هو عدم العودة « فإذا علمنا أن الشاعر ذاته عاش منفيا طريدا فى أكثر من سجن معنوى فى حياته أدركنا موقفه النفسى في اللاعودة وفقدان الأمل بها ، وهنا يتحد آلمغزى الشعورى العام للرمز مع المغزى الشعوري العام للتجربة الشعرية »[٦] .

وقد يكون الرمز كما يرى الدكتور علي عشري كليا يستقطب كل الأبعاد النفسية في رؤية الشاعر الشعرية ، وأحيانا يكون جزئيا يوحي ببعد واحد من أبعاد الرؤية الشعرية المتعددة ، ويتآزر مع بقية الأدوات الأخرى في القصيدة ، وقد يكون الرمز الجزئي عنصرا من عناصر رمز كلي عام [٧] .

فقصيدة الدكتور صالح الزهراني « مقاطع من سيرة أبناء يعقوب » تأتى صورة للرمز الكلي الذي يستوعب رؤية الشاعر وتدور في إطاره كل الأدوات الأخرى في القصيدة ، عندما جعل من أبناء يعقوب صورة لآبناء العصر وما يجره عليهم الخلاف من انتكاسات :

كان أبي مجربا

تعلم الأفكار والأشعار من مواسم الرمان والحبوب

في قرية ناعسة الأهداب في الجنوب

كان أبي يضمنا بقلبه

ويستر العيوب

كان - وكنا إخوة ، يأكلنا الخلاف -

يضربنا ، يطردنا من غرفة واحدة

فلانتوب . .. إلخ النص [٨] .

ورمز الذهب سبيل الإغراء في قصيدة الدكتور محمد أحمد العزب يوحي ببعد واحد من أبعاد الصراع بين الخير والشر ، والنماء والجدب ، والحقيقة والزيف في « بكائية من شاعر جبان » :

رفاقي .. سترتي ذهب .. وبيتي كله ذهب
ولكني على الجدران أبصر كل من ذهبوا
وأبصر في يدي دمهم
فأبكيهم وأنتحب [٩] .

وثمة دوافع كثيرة ومتنوعة دفعت الشاعر المعاصر إلى بناء قصيدته بناء رمزيا، وسنحاول رصدها والتنبه إلى خطورة بعضها وتأديتها إلى بعض المحاذير التي وقع فيها الشعر المعاصر .

فقد يرجع ذلك المنحى إلى سبب لغوي يتمثل في أن الشعراء يتخذون من الرمز أداة للتعبير « بدعوى أن اللغة العادية عاجزة عن احتواء التجربة الشعرية ، وإخراج مافي اللاشعور ، وتوليد الأفكار الكثيرة في ذهن القارىء ، فبالرمز تستطيع اللغة نقل هذه التجربة واجتياز عالم الوعي إلى عالم اللاوعي ، فتلد وتوحي ، ويتناثر لألاؤها ووميضها في معان تتساقط على ذهن القارىء كالمطر » [١٠] .

وتلك دعوى تتبع جزئياتها بالمناقشة الشيخ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري في كتابه العقل الأدبي بمالا يحتاج إلى مزيد (مطبوعات نادي القصيم الأدبي حـ٢ ص٤٣٢) .

وقد يرجع ذلك إلى سبب اجتماعي يتمثل في عجز الشاعر أن يواجه المجتمع المحيط به بطوايا النفس ورؤى العقل ، خاصة في تلك الفترات التي اتسمت بالكبت السياسي والاجتماعي في الحياة المعاصرة ، وهو سبب ينبع من الخارج - فيما نرى - وأولى منه أن يأتي الباعث من الداخل ، بأن تكون طبيعة التجربة الشعرية ، وموقف الشاعر من دور الأدوات الشعرية في بناء قصيده ، والشكل الفني الذي يجمع بينهما من أهم الدوافع إلى الاعتماد على الرمز في التشكيل الفني للنص الشعري .

وقد يرجع ذلك إلى سبب أدبي ، وهو دور التأثير والتأثر بين الآداب المختلفة ، والتقليد للمدارس الأجنبية الذي تفشى في أدبنا المعاصر بعد الاتصال بها عن طريق البعثات أو الهجرة أو الترجمة . وهو عامل لايغفل دوره في وسم كثير من صور التعبير الرمزي في القصيدة المعاصرة بالغموض ، خاصة في تلك الرموز المسترفدة من الآداب

الأجنبية التي لايقف على أبعادها القارىء مما يجعله لايستثار بتلك الرموز ولايقوى على تحديد موقفه من النص .

وقد يرجع إلى سبب نفسي يكمن في إحساس الشاعر بالغربة والتفرد ، الغربة في الزمان والمكان التي تجعله يبحث عن صوره بعيدا عنه ، والتفرد أو التعالم الذى منى به بعض الشعراء فصاروا يرددون الرمز في شعرهم حتى وإن لم يتواءم مع النسيج الفني لبناء القصيدة .

وقد يرجع أخيرا إلى سبب نقدي ، يكمن في دور النقد الموجه في حياتنا الأدبية وفاعليته فى انتشار كثير من الرموز المستمدة من العقيدة المسيحية(الخطيئة ، الفداء ، الصلب ، الخلاص) ، أو الفكر الباطني (التوحد ، سر الحرف) . وقد كشف الشيخ محمود شاكر في كتابه أباطيل وأسمار عن دور كتابات لويس عوض في الأهرام في شيوع هذه الرموز (١١) .

ومن يقرأ أحفاد شوقي لأحمد عبد المعطى حجازى يدرك أن النقد تحول من التقويم إلى الترويج ، مما يجعلنا نتساءل عن الأسباب التي جعلت النقد يتحول إلى مسوغ لكل عبث حتى وجدنا ما يسمى قصيدة «آية جيم » يتحول من العبثية إلى « نوع من التنقيب يكشف به الشاعر طبقات اللغة طبقة بعد أخرى من خلال بحثه عن حرف الجيم الذي يصبح محوراً لأبجدية جديدة أوجهازا حساسا تكتشف به لغتنا القديمة من جديد »(١٢) . وأيا ما كان الدافع فإن الواقع الآدبى ينطق بوجود مأزق يصل إلى حد الأزمة في التعبير بالرمز في الشعر المعاصر ، وأن ما تغياه الشعراء من إثراء للفن ، وما يحمله الرمز في داخله من قيمة وطاقة لم يشفعا في إخفاء تلك الأزمة . وإذا جاز أن أجمل أسباب الأزمة في رقة قوى بعض الشعراء، وطيش سهام بعضهم الآخر ، والإسراف والمغالاة لدى غير هؤلاء وهؤلاء ، فإنه يمكن التدليل على وجود تلك الأزمة والوقوف على أهم وجوهها فى النقطتين الآتيتين :

- تكرار الرموز وتجمد الدلالة :

فمن صور التكرار رمز الأنثى الغوية التي تعد صورة لجناية المجتمع على الفرد عند الرومانتيكيين فقد عالجها الشعراء العرب في صور رمزية متشابهة ، على نحو ما نجده في قصائد : دمعة بغى لمحمود حسن اسماعيل ، والهيكل المستباح لصالح جودت ، وخرساء فى الملهى لمحمد الجيار ، والموسيقية العمياء لعلي محمود طه ، والخاطئة لفوزي

العنتيل ، وثائرة لفؤاد بليبل ، والمومس العمياء لبدر شاكر السياب ، والبغي لنزار قباني .

وقد تتبع أحد الباحثين تلك الرموز اللغوية التي تكررت لدى الشعراء المعاصرين ، مثل كلمتي الشاي والحذاء اللتين قالهما صلاح عبد الصبور واقتفى أثره فيهما الشعراء، ومثل لفظ الخضرة الذي احتل مساحة كبيرة في دواوين : صلاح عبد الصبور، وأحمد عبد المعطى حجازى ، وحسين محمد على ، وبدر شاكر السياب ، ولفظى الرحيل والسفر في شعر صلاح عبد الصبور ، وأحمد سويلم ، وحسين محمد على ، ومحمد يوسف ، وصابر عبد الدايم .

وذلك فضلا عن تكرار الرموز الشعرية في نتاج الشاعر الواحد « وهذا التكرار يعنى أن الرموز نضبت وتجمدت وأصبحت دلالتها إشارية وليست إيحائية كما يتطلب من لغة الشعر دائما » (١٣) .

- **الغموض والتعمية** الناتجين عن التركيب والتعقيد في بناء الرمز الموضوعي والتعبيري ، أو الإسراف في استخدام الرمز الاسطوري والأجنبي مع انقطاع الصلة الثقافية بين المبدع والمتلقي .

فمن النموذج الأول قصيدة « إلى زائرة » للدكتور بشر فارس ، التى يقول فيها :

لو كنت ناصعة الجبين هيهات تنفضني الزياره
ما روعة اللفظ المبين السحر من وحي العباره

فقد تردد الشراح في تأويلها بين وصف الحبيبة ، أو تحليل مفهوم الشعر لدى الشاعر (١٤) .

وفي الإطار الثانى « فالأصل في الرمز كما نعرف هو أن نزيد الصورة وضوحا ونعطيها من الأبعاد ما يعمقها ، أما فى أدبنا الحديث وبسبب الانقطاع الثقافي بين التراث الإغريقي والقارىء العربي أصبح الرمز أحد أسباب الغموض في الأدب ، وأحد أسباب عدم وضوح الرؤيا ، ولعل الشاعر هدف إلى ذلك مستغلا براءة القارىء وجهله الثقافي ، يهدف من وراء ذلك إلى التعالي الفكري والشموخ المفتعل » (١٥) .

ولسنا في ذلك ندعو إلى البعد عن منابع الثقافة العالمية ، وإنما ندعو إلى القصد فس الاستعمال ، والإيحاء بالسياق إلى ما يشي به الرمز الشعري، وإلا فكم من القراء

يعرف دلالة سيزيف ، وميدوز ، ونرسيس ، وغنميدا ، وسرويروس ، وأفرويت ، وهيلين؟ ودعنا من مقولة حرية الفنان في إبداع النص ، والشعر طموح أعلى من المقاييس ، فسيظل المتلقى والمبدع طرفى معادلة وسط تفاعلها وجود قدر مشترك من الفهم لأبعاد النص الذي يربط بينهما ، والذين نادوا بحرية الأديب وأستاذيته واستسلام المتلقى وتلمذته ، ينادون اليوم بموت الأديب وحرية المتلقى فى التعامل مع إرثه من النصوص الأدبية بعيدا عنه .

ولهذا الغموض الذي شاع في الرمز يقول الأستاذ جورج صيدح : «الشعر الحديث يعتمد الرموز في الآداء ويباهي بها ، وما أجمل الرمز اداة للتفاهم والإيحاء ، إنه روح اللغة الناطق بما يعجز عنه لسانها ، ولكن الرمز هو غير اللغز . فاللغز لايفهم ولايوحي، أما الرمز فإنك تفهم من إيحاءاته أضعاف ما تفهم من كلمته ، شرط أن يقف المومىء حيث تراه في النور لا في الظلام » (١٦).

الهوامش :

(١) مذاهب النقد وقضاياه . د . عبد الرحمن عثمان . مطابع الإعلانات الشرقية . القاهرة ١٩٧٥ ص ٣٧١ .

(٢) المسافر في سنبلات الزمن . د . صابر عبد الدايم . مطبعة الأمانة القاهرة ١٩٨٣ . ص ١٠٢ .

(٣) عن بناء القصيدة العربية الحديثة د . علي عشري زايد ، مكتبة دار العلوم القاهرة ١٩٧٢ ص ١٢٨ .

(٤) الشعرالعربي المعاصر : قضاياه وظواهره الفنية و المعنوية .د . عز الدين إسماعيل . دار العودة . بيروت ١٩٧٢. ص ٢٢٢ .

(٥) الرمز والرمزية في الشعر المعاصر .د . محمد فتوح أحمد . دار المعارف بمصر ١٩٧٧ . ص ٢٩ .

(٦) حركة النقد الحديث والمعاصر د . إبراهيم الحاوى . مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٤ ص ١٨٤ .

(٧) عن بناء القصيدة العربية الحديثة ص ١٢٤ .

(٨) ينظر تحليل النص لكاتب المقال في ملحق المدينة المنورة الأربعاء ١٤١٦/٩/٤هـ

(٩) مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر . د. نسيب نشاوي دمشق ١٩٨٠ - ص ٥٥٦.

(١٠) السابق . ص ٤٧١.

(١١) أباطيل وأسمار . ط. المدني ١٩٧٢ ٢/٢١٤.

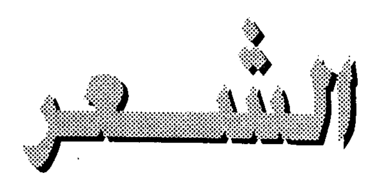
(١٢) أحفاد شوقي . أحمد عبد المعطى حجازى . منشورات الخزندار ١٩٩٢ ص ١٥٠

(١٣) التغريب فى الشعر العربي المعاصر .د . مصطفى السعدنى . منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٨٨ ص ١٠٧ .

(١٤) الرمزية في الأدب العربي .د . درويش الجندي . دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٩٧٢. ص ٤٥٤ .

(١٥) دراسات في الأدب المقارن التطبيقي . د. داود سلوم - وزارة الثقافة والإعلام - العراق ١٩٨٤ - ص٢٥٠.

(١٦) الأدب ومذاهبه . د . محمد مندور . دار نهضة مصر للطبع والنشر . د .ت ص ١٣٠ .


الشعر

من للسلام ؟

د/ محمد بن سعد الدبل

لغـــة الشـــعـــر والقـــوافي ســـلاحي
فـــاتني الـركب فـــاندبي ياجـــراحي
اخـــفض الصـــوت فـــالحـــروف حـــيـــارى
شـــدوها طائر مـــهـــيض الجناح
أي بـــر أســـديـــه إن ظـــل خـــطوي
رهـن أنشـــودتي ونجـــوى صـــداحي

* * *

إذا صـــوت الـــنـــذيـــر تـــنـــاءت
كـــبـــريائي وآمـــعنت في اطّراحي
وإذا زمـــجـــر الحـــديـد تـوالت
خـــفـــقـــات تســـرها أتراحي
مـــالهـــذا الوجـــود ؟ مـــاذا دهاه؟
كـل أرض شـكـت هـمـــوم الـنـواح
كـل أرض مما يـثـــار عليـــهـــا...
من مـــآسي تســـربلت بوشـــاح
نشـــر البـــغي في حـــمـــاها لصـــوصاً
تـــتـــنزى فـي غـــدوة ورواح

لغـــــة القـــــهــــر نطقـــهـــــا وســـــواه

لـيس من حـــــمكـة ولا مـن ســـــمـــــــاح

* * *

أيهـــــا النـاعـــــقـــــون بالـعـــــدل مـكـراً

كـــــيـف تـعـــــدون بـالـقـنـا والـرمــــــاح ؟

تطعــــمـــون الرصـــاص شـــيـــخـــاً وطفـــلاً

كــــــيـف بـالأم والـعــــــــــذارى المـلاح ؟

فـى ســــجــــون تزاحـــــمت باجـــتــيــــاح

وأبـاة الـرجــــال أوثـقــــــتـــمــــوهم ...

ووكـلـتم تـعـــــذيبــــــهم لـلـوقــــــاح

وتـشــــفـــــيـــــتم بقـــــتـل الأســـــارى

مــــــالـهم فـى ســــجـــــونكم مـن بـراح

* * *

أي شـيء نـبكـيـــــه أو نـفــــــتـــــديه

والمـآسي تجـــــــتـــــاح كـل الـنـواحـى

ربٍّ مـن لـلســــــلام إن صــــال كــــفــــر؟

غــــــيــــر دين مـــــتـــــوج بـالصـــــلاح

فـــــأجــــر أمـــــتـى وحـــــقـق مـنـاهـا

بـانـتـــــصــــــار وقــــــوة وفــــــلاح

* * *

نهـــر الشــوق

أحمد ابراهيم الحربى

قم حدّث الرسم أنى لونه شَحُبـا أو واستنطق الحـرفَ إن مـالَ الهـوى طرباً
لامس الشـوقُ خـدُّ الغـيم واعـتلجتْ صفو المشـاعر فـاضَ المزنُ ، وانسكبا
قل « للحميِّد » إن الصيف موعدُنا فـالشوقُ قد سال نهراً طوّقَ الهُضُبا
يطوي المسـافـات والأمـال مشـرعـة خلف القناديلِ في ليل الرؤى شُـهـبـا
يأتى على البـعـد فـوق الهـام بلبله الصّـداح غَنّاكَ .. لَمّا لحنَهُ عـذُبا
وافـاك من عـالم الأحـلام ملتحفٌ بالزمهرير ، ونجم الليل قـد غـربا
وأنداح كـالعطر هتّـانا تداعبُـهُ خضرُ الروابيَ .. لما ضاحك السحبا
يصبّ عني عيـون الشعر في مـهج تذوي .. فأنعش فيـها كلّ مـا نضبا
وذبتُ بين القـوافي ذوبَ أفـئدة تطرز الصَّمتَ في سفر النوى عتبا
قطفتُ من روضِه الزاهي زنابقَهُ فواحةً .. كتحياتِ الضحي أدباً
نثـرتُها ونـدى الذكرى تسـائلني عـمـا دهاني ؟ .. ولا أدري له سببـا!!

❊ ❊ ❊

يادوحة الشعر ..يا " أبهـا" يغـالبني في زحمة الشوق عشقي حيثما اغتربا
إنْ غـرّد الطيـر في قلبي على شـفـتي وصفّقتْ في الحنايا مـهـجتي طربا
فـالمنهل العـذب في واديك منبـعُـهُ ومن سواقيك عصفورُ الهوى شربا
وفي روابيك طيفُ الأمس يكتـبني ويغسلُ الريحُ رسمي كلّما احتجبا
يافـتنةَ القلبِ لولا الحبُّ يحملنى على الأغـاريدِ مـا آنسْتُ فـيكِ رُبى
لولاه مـا أعـشبتُ في العين نضرته ولاجنى النخلُ في صحرائِه رطَبَا

ولاشـــدا بلبلي الغـــريد " فـــاتنتي " وذاب فـي فـــيك لحنى أينمـــا ذهبَـــا

قـــولي له ياربى " أبهـــا" ســـري حلمي ومـــا بقى من بقـــايا العـــمـــر ومضُ صِـبَـــا

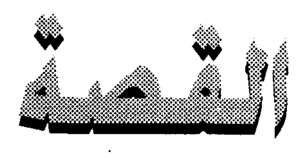
ولي ربيـــعي الذي تاهتْ ببـــهـــجـــتـــه عـــرائسُ الوردِ ، واخـــتـــالتْ به حِـقَـبَـــا

ولـي ولـم يبـق فـي روضـي ســـــوي وَجـنِ إن جـاش فــيــهـا فــؤادي مـالَ واضطَربَا

يسـقي بقـايا صـدى عـمـري ويزرعني شـعـراً ، على ثغـر " أبهـا" كلّمـا انتـحّبـا

إن جـــاء يافـــتني طيــفي تلاعـــبُـــهُ نسـائمُ الفـجـرِ واسـتَـودَعْـتـهِ الهُـدُبا

فـــقـــد شـــربتُ سنينَ العـمـــرِ مـــرتـهناً بعــــشقِ " أبهـــا" ..وقلبي لم يلذْ هَربَا


القصة

الـرقيـب

محمد سعيد محمد عامر

قال سعيد لابنه محمد وهو يودعه في المطار: إنني يابُني ما وافقت علي سفرك للدراسة في الرياض إلا بعد أن اتخذت من أصحابي هناك من يوافيني بتقارير مستمرة عن وضعك . وسأبعث لك كل شهر شيكاً يغطي نفقاتك ، فإن تأخر الشيك فما عليك إلا أن تذهب إلى مكتب الخطوط الجوية لتجد تذكرة العودة بانتظارك فخير لك أن تعود إلينا سريعاً بلا شهادة جامعية من أن تبقى متسكعاً في الشوارع أو أن ينتهي بك الأمر للعمل في غسل السيارات في مواقف الرياض .

ابتسم محمد ولم يجب ومالبث أن صافح مودعيه واعتلى سلم الطائرة وبعد عدة شهور كتب محمد لأبيه يقول :

والدي الحبيب : منذ أن غادرتكم والشيكات تصلني في ميعادها ما تأخر منها شيك واحد فعلمت أن خطتي في خداع الرقيب قد نجحت فقد عرفت من هو الرقيب الذي اتخذته وتعرفت على صفاته فرأيته يأخذ الأمور بظواهرها وعن خوافيها هو جاهل فصرت أتحين الفرص لأقترف ما أنا مقترف وألهو بما أشاء فإن حضر ظهرت أمامه كما تحب أنت أن تراني .

وطال بي الزمن وأنا على هذه الحال إلى أن دعوت صديقاً لي إلى سهرة لهوٍ فارتبك وقال : إنني أخشى الرقيب . قلت : ياصديقي وأنا كذلك عليَّ رقيب ولكن أنَّى له أن يعرف ما أفعل ؟

قال : يالك من ساذج ، فقلت : أتهزأ بي ياصاح ؟ قال : أبداً إنما يبدو أنك لاتعرف عن طرق المراقبة شيئاً . أما لاحظت أن المحال التجارية كلها مراقبة بالمصورات (الكاميرات) التلفازية التي تراقب حركة الزبائن ؟ أما تعلم أن إشارات المرور تراقب أيضاً بالمصورات الخفية التي تلتقط صور السيارات المخالفة لقواعد المرور ؟

أما سعمت أن الرادار يستخدم في مراقبة سرعة السيارات لمعرفة التي تجاوز حدود السرعة المسموح بها ؟ قلت : نعم أعلم هذا كله فما دخله فينا ؟ قال : هناك طرق

أخرى أدهى من هذه تراقب حركة الأفراد وتحصي عليهم أنفاسهم . من ذلك مثلاً أن أجهزة التصنت يمكن أن توضع في بيتك وأنت لاتدري فتقوم بالبث اللاسلكي لكل ما يصدر عنك إلى جهاز استقبال فى مركز للمراقبة فتسجل كل أحاديثك . أو قد توضع هذه الأجهزة على أسلاك هاتفك فتسجل كل مكالماتك . وهناك أجهزة توضع في سيارتك أو في حقيبتك فيستطيع الرقيب أن يحدد مكانك دون أن يراك . وقد توضع لك المصورات التلفازية الصغيرة خفية في « ديكور » غرفة نومك فتقوم بالبث المباشر لكل ما يجري وأنت لاتدري .

قلت : وهل يمكنني أن أكتشف هذه الأجهزة ؟

قال : نعم ولكن ليس بسهولة . فهذه الأجهزة تكون صغيرة في العادة والكشف عنها يتم بواسطة أجهزة الكترونية خاصة ومن قبل مختصين بها .

قلت : إن طرق المراقبة المختلفة لاتقدر عليها بعض الدول أفتظن أن والدك يستخدمها لمراقبتك ؟

وهل ينفق والدك على مراقبتك أكثر مما ينفق على دراستك ؟

ضحك صاحبي وقال : هذه ياصديقي بعض طرق المراقبة التي عرفها الإنسان حتى الآن وأستطيع القول بأنها رغم تطورها طرق محدودة .

وهناك على أي حال طرق لمعاكستها وخداعها والتشويش عليها . وما اخترعت طريقة إلاوتلاها اختراع يعاكسها ويقلل من شأنها. وهي - مهما تقدمت - طرق قاصرة لأنها تراقب أعمالك ولاتعرف شيئاً عن نواياك .

قلت : ففيم الخوف إذن ؟

قال : ياصاحبي إن الرقيب الذي أخافه هو الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، الذي يعلم السر وأخفى الذي ما ألفظ من قول إلا لدي منه رقيب عتيد، الذي يعلم ما توسوس به النفس وهو أقرب إليَّ من حبل الوريد، الذي يتوفانا بالليل ويعلم ماجرحنا فى النهار، الذي لاتأخذه سنة ولانوم، الذى هو معنا أينما كنا وهو بما نعمل بصير .

وقعت كلماته عليَّ - ياوالدي - وقع الصاعقة ومرَّ في مخيلتي شريط حياتي سريعاً ، وأدركت مدى الخسارة التي لحقتني .

« سامحك الله ياوالدي فلو أنك دللتني على هذا الرقيب لوفرت مالك ووقتي . فاتخذ من شئت من الرقباء فلن أخافهم وأرسل من ترى من العيون فأخدعهم ولكن أنىَّ لي أن أخدع ربي .

أشهدك - ياوالدي - أني إلى الله منيب ومن عذابه مشفق ولرحمته راجٍ .

وأستودعك الله والسلام عليك » .

استراحة بيادر

في رياض الأدب

إعداد : د . إبراهيم راشد

١- استهلال :

عن عبد الله بن بُسْر رضي الله عنه أن رجلاً قال : يارسول الله ، إن شرائع الإسلام قد كثرتْ عليَّ ؛ فأخبرني بشيءٍ أتَشَبَّثُ به ، قال :

« لايزالُ لسانُكَ رطباً من ذكر الله »

رواه الترمذي ، واللفظ له ، وقال : حديث حسن غريب ، وابن ماجه ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

٢- أدب الأكابر :

حكى التاج السبكي في كتابه (طبقات الشافعية) في ترجمة الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري (٥٨١- ٦٥٦هـ) - صاحب كتاب (الترغيب والترهيب)، وكان - في مجال الحديث - أحفظ أهل زمانه ، أن شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام (٥٧٧- ٦٦٠هـ) كان يُسْمِع الحديثَ قليلاً بدمشق ، فلما دخل القاهرة أبطل ذلك، وصار يحضر مجلس الشيخ زكى الدين ، ويَسْمَع عليه فى جملة من يَسْمَع ولا يُسْمِع، وأن الشيخ زكى الدين أيضاً ترك الفتيا ، وقال : حيث دخل الشيخ عزّ الدين لاحاجة بالناس إليَّ .

قال الدكتور يوسف القرضاوي :

أقول : وهذا من أدب الأكابر ، وأخلاق العلماء الأعلام : أن يدعَ كلٌّ منهم لصاحبه ما هو أحقّ به وأولى .

٣- عن الحسن البصري - درس للدعاة :

في كتابه عن الحسن البصري ، ذكر الدكتور إحسان عبّاس المميزات التي قام عليها أسلوب الحسن البصري في خطبه ومواعظه ، وأن من أظهرها : الاندفاع فى التعبير ، والاستناد إلى الحدّة في اللفظ والتركيب ... قال :

« وينسجم مع هذه الحدة تلوينه الحديث تلويناً ساطعاً بالالتفات الجرىء الحادّ؛ فهو يتحدث للإنسان مطلقاً ، وفجأة تجده أسرع إلى الالتفات فأخذ يذمّ أو يتأسّف، كأنما هو يخاطب شخصاً معيناً يقف أمامه . استمع إليه في حدّة التفاته وهو يتحدث عن الإنسان الجشع، فيقول : «حتى إذا أخذته الكظة وتجشأ من البشم قال : ياجارية، هاتى حاطوما (شيء يهضم الطعام) ، ياأحمق، لا والله لن تهضم إلا دينك » .

... ويستغل الحسن هذا التحول المفاجىء استغلالاً بعيداً للتأثير ، ومن ثم بنى طريقته الخطابية على المفاجأة ، وحيث تكثر المفاجأة تجده أكثر من الخذف والاكتفاء بأقل قدر ممكن من الكلام ، ومن ثم تتحقق الرهبة التى يريد غرسها في النفوس ؛ لأن كل كلمة تترك وراءها فضاء رهيبا يروده خيال السامع مرتعشاً خائفا . ومن أوضح الأمثلة على ذلك قوله : « أمتكم آخر الأمم ، وأنتم آخر أمتكم ، وقد أسْرِع بخياركم ، فماذا تنتظرون ؟ المعاينة ؟ فكأن قد . هيهات هيهات ذهبت الدنيا بحال بالها ، وبقيت الأعمال قلائد في أعناقكم »

ومع هذه الحدة كان الحسن لايثير في المخاطبين شيئاً من التحدي ؛ لأنه كان إذا وقف بينهم وجّه الموعظة إلى الإنسانية جميعا، لم يكن يخاطب هذا أو ذاك ، بل كان يخاطب الإنسان أو « ابن آدم» في كلِّ مكان . وقد أصبح توجيه الخطاب لابن آدم بدء كلِّ موعظة عنده . ولم يكن يغفل في هذا التعميم حقيقة أخرى تعطف القلوب على حكمته وهى معني الرثاء لحال ابن آدم ؛ إذ لم يكن الحسن دائماً معنفا ثائراً بل كان يظهر عطفه على ابن آدم المسكين ويأسى لحاله في مثل قوله: « مسكين ابن آدم ، مكتوم الأجل ، مكنون العلل » وقوله : « مسكين ابن آدم ، رضي من دار حلالها حساب وحرامها عقاب » ... نجد إشفاقاً داخليا عنده على الإنسان الضعيف العاجز ، الذي يرمى عن قوس القدر فلا يستطيع دفاعا، وبمثل هذه الأقوال المشحونة بالتعاطف والرثاء كان الحسن يجتذب إليه القلوب » .

٤- بين الانفعال والافتعال :

لمحة ذوقية رائعة قدمها الشاعر الناقد إبراهيم العريّض في كتابه «نظرات جديدة في الفن الشعري » وازن فيها بين بيتين قال إنهما لجاهلي (وهما في حماسة أبي تمام

،وقيل إنهما للأحوص) وبيتين قال إنهما لحضري (وهما لشاعر الدولة الحمدانية الوأواء الدمشقي) ، وكان محور الموازنة مدى صدق العاطفة عند الشاعرين ، قال :

« - الجاهلي :

وممّا شجاني أنها يوم ودَّعَتْ تولَّتْ وماءُ العين في الجفن حائرُ

فلما أعادت من بعيد بنظرةٍ إليّ التفاتاً أسلمتْه المحاجِرُ

- يصف ساعة الوداع ، فهو يقول : إنها حين ودّعته تحيرَّ الدمع في عينيها ، ثم سارتْ عنه ولبث هو واقفاً. فلما التفتت بعد خطوات التفاتة المشوق ترقرق ذلك الدمع سائلاً على الخدَّيْن ، فكأنما سال ليزيد العاشق المفجوع شجناً على شجنٍ.

- لحضري :

قالت : متى البينُ ياهذا ؟ فقلت لها : إما غداً زعموا ، أولا فبعد غـدِ

فأمطرتْ لؤلؤاً من نرجس وسقتْ ورداً وعضَّتْ على العُنَّابِ بالبَرَدَ

- لاأظن أنه مرّ بي في كلّ مطالعاتي بيت أسمج من أول البيتين هذين، ولا أبعد عن الإحساس الصادق في مثل هذا الموقف من ثانيهما ، وقد يشفع لمثل هذا البيت الأخير عند كثير من الناس شكله الزخرفي ، ولكنه قد جاء على حساب الحياة نفسها ، وإلا فمن تراه يكون حتى تخاطبه بقولها : ياهذا ؟ أهو جَمَّال ؟ ثم جوابه لها : هل تجد فيه أدنى إحساس بالألم بالرغم مما ينتظر الاثنين من لوعة الفراق ؟... »

٥- من شعر الرافعي :

الكاتب الكبير مصطفى صادق الرافعي (-١٣٥٦هـ /١٩٣٧م) - يعرفه الناس ناثراً، ونثره حقاً - كما قال الزركلي - من الطراز الأول ، إلا أنه شاعر أيضا، له ديوان شعر - ثلاثة أجزاء ، وشعره - كما يقول الزركلي - « نقيّ الديباجة ، على جفافٍ في أكثره » - من رائع شعره قوله:

أنا المقيّد في نفسي وفي خلقي كأنني عهد حرٍّ قيده القسمُ

لا كالخليع يرى الأخلاق تمنعه جرماً عليك فيلقيها ويجترم

شتـان بين امـــرىء ٍ في نـفسه حـرم قدس وبين امرئٍ في نفسه صنـم
كيف السباق غداة السبق إن جمـــعتْ لهُ الجيادُ ولم توضعْ لها اللجــم

٦- « يُبْعَثُ الناسُ على نيّاتهم »

حكى الجاحظ قال :

« رجع طاوس - وهو من أكابر التـابعين - يومـاً عن مـجلس مـحـمـد بن يوسف، وهو - يومئذ - والي اليمن ، فقال : ماظننتُ أن قول « سبحان الله » يكون معصيةً لله تعالى حتى كان اليـومُ ، سمعتُ رجلاً أبلغ ابن يوسفَ عن رجلٍ كلاماً ، فقال رجل من أهل المجلس : « سبحان الله » كالمستعظِم لذلك الكلام ؛ ليُغْضِبَ ابن يوسف . »

٧ - النساء وتراث الإنسانية العقلي :

تحت هذا العنوان نقل الأستـاذ محب الدين الخطيب عن ابن أبى أصيـبعـة في « طبقات الأطباء » قوله - في ترجمة الأمير المبشربن فاتك الأمير الطبيب بعد أن وصف خزائن كتبه - : « وكانت له زوجة كبيـرة القدر أيضا من أرباب الدولة ، فلما توفي رحمه الله نهضت هي وجواريها إلى خزانة كتبه - وفي قلبها من الكتب أنه كان يشتغل بها عنها - فجعلت تندبه ، وفي أثناء ذلك ترمي الكتب (المخطوطة) في بركة ماءٍ كبيـرة في وسط الدار هي وجواريها . ثم شيلت الكتب بعد ذلك من الماء وقد غرق أكثرها. فهذا سبب أن كتب المبشربن فاتك يوجد كثير منها وهو بهذه الحال » .

قلت : وقد وجدت حكاية أخرى تجري هذا المجرى ، نقلها صاعد البغدادي في كتاب الفصوص عن أبي علي الفارسي ، قال : تزوج سيبويه بالبصرة بجارية عَشِقَتْه ،وهو قد بنى عقد كتابه ، وصنَّفَ أوائل أبوابه ، وهي في جُزازات وقطع جلود ، وخِرقٍ وأشقافٍ بيض . فلم يكن يُقْبل على الجارية ، ولايشتغل بها ، وهي مشغوفة بحبه . ولم يكن يشغلهُ غيرُ النظرِ والسهر والكتب، فترصدتْ خروجَه إلى السوق في بعض حوائجه، وأخذتْ جَذْوة نارٍ فطرحتْها في الكتب حتى أحْرِقَتْ، فرجع سيبويه فنظر إلى كتبه وهي هَبَاءً ، فغُشِيَ عليه أسفاً ، ثم أفاق فطلّقها، ثم ابتنى الكتاب بعد ذلك ثانية .

قال صاعد : قال لنا أبو علي : وذهب منه علمٌ كبير أخذه على الخليل فيما احترق له ، وإنا للّه على ذلك » .

٨ - مُزَاحم العُقَيْلي :

مـزاحم بن عَـمْـرو بن مـرَّة بن الحـارث ... من بنـي عـقـيل بن كـعب ، من عـامـر بن صعصعة .

بدوي شاعـر فـصيح ، من الشـجعـان ، كـان في زمن جرير والفرزدق ، وسـئل كل منهما : أتعرفُ أحداً أشعر منك ؟ فقال الفرزدق : لا ، إلا أن غلاماً من بني عقيل يركب أعجاز الإبل ، وينعت الفلوات فيجيد . وأجاب جرير بما يشبه ذلك .

وقيل لذي الرمة : أنت أشعر الناس ، فـقـال : لا ، ولكن غلام من بني عـقيل يقـال له مزاحم ، يسكن الروضات ، يقول وحشيًا من الشعر لايقدر أحد أن يقول مثله .

وإليك - أيها القارىء الكريم - بعض محاسن شعر مزاحم:

أ - أورد أبو تمام في حماسته قوله :

ومابَرِحِ الواشُوق حتى آرتموْا بنـا   وحتى قلوبٌ عن قلوبٍ صوادفُ

وحتى رأينا أحْسَنَ الوصل بيننا   مُسَـاكَتَـةٌ لايَقْرِفُ الشَّرَّ قَـارفُ

(يقول : صرف الواشون قلب من أهوى عن وصلي ، وجعلوه يَصْدِف عني - أي : يُعْـرض - وصـار كل واحد منا إذا لقي صـاحبـه جعل مكان التـحـيـة والحديث السكْوتَ والإطراق .)

ب - كان مزاحم خطب ابنة عم له ، فمنعه أهلها لإملاقه وقلة ماله ، وانتظروا بها رجلاً موسراً في قومها ... فأنكحوه إياها ، فقال مزاحم :

هنيئاً لليلى مُهْجَةٌ ظفرتْ بهـــا   وتزويجُ ليلى حين حان ارتحالُهـا

فقد حبسوها مَحْبِس البُدْن وابتغى   بها الربـحَ أقـوامٌ تساخف مـالُها

فإنّ مـع الـركب الذيـن تحمَّلـوا   غـمامة صيفٍ زعزعتها شمالُهـا

جـ - ومن شعره :

وَدِدْتُ على ما كان من سَرَف الهـوى   وغـيِّ الأمانـي أنّ ماشئتُ يُفْعَـلُ

فتـرجع أيـامٌ مَضَـيْنَ ولـــذّةٌ   تولّتْ ، وهل يُثْنَى من العيش أوّلُ؟

د - وقال :

بكتْ دارُهُمْ من نأيهم فتهلّلتْ دموعي ، فأيُّ الجازعيْن ألوم ؟
أمستعبراً يبكي من الحزن والجوى أم آخر يبكي شجوه فيهيم .

هـ- ومما غني فيه من شعره :

لها في سواد القلب تسعة أسهمٍ وللناسِ طُراً من هواي عشيرُ

و - ومن فرائد أبياته :

تكاد مغانيها تقول من البِلى لسائلها عن أهلها : لا تَعَمَّلِ

(أي : لاتَتَعَنَّ ، فليس لك فَرَج) .

٩- من الجوابات المسكتة :

ذكر الزُّبيدي في طبقات النحويين ، ونقل عنه القفطي والسيوطي ، في ترجمة محمد بن صدقة المرادي الأطرابُلُسيّ ، أنه كان عالماً باللغة شاعراً متقعراً في كلامه متشدقاً -دخل يوماً على أبي الأغلب أمير طرابلُس، فتكلم وأغرب وتجاوز المقدار. فقال له أبو الأغلب : أكان أبوك يتكلّم بمثل هذا الكلام ؟

فقال :نعم ، أعزّ الله الأمير ، وأمِّيَهُ . يريد : وأمي أيضا تتكلم بمثل ذلك .

فقال الأمير : مايُنْكَر أن يَخْرُجَ بغيضٌ من بغيضيْن

١٠- « الكلمة الحكمة ضالّة المؤمن»

منذ أكثر من ألفي سنة وضع الخطيب الروماني الشهير شيشرون قائمة بما يعتقد أنه الأخطاء الخمسة الخطيرة المشتركة بين الناس .

ولاتزال قائمة شيشرون تثبت وجودها حتى اليوم ، وكأن واحداً من حكماء عصرنا هو الذي وضعها .

وهذه هي القائمة كما سجّلها شيشرون :

١- الاعتقاد السائد بأن تقدم الفرد لايتحقق إلا بسحق الآخرين .

٢- طول المعاناة من أمورٍ لايمكن تغييرها أو تصحيحها .

٣ - الإصرار على أن تقول : إن هذا الشيء مستحيل ؛ لأنك عاجز عن إنجازه .

٤- رفضك أن تتنازل عن مبدأ المفاضلة حتى في الأشياء التافهة .

٥ - عدم حرصك على صقل عقليتك ، ورفع مستواها نتيجة لعدم تعويد نفسك القراءة والدراسة .

١١ - ظَرْف أبي العلاء المعري :

في مقدمة « رسالة الملائكة » التي أجاب بها أبو العلاء عن مسائل صرفيّة، سئل عنها ، ومزجها بغيرها ، مما دلّ على علم غزير ، وأدب جمّ واطلاع واسع على فصيح اللغة، وشواردها ، ونوادرها - نجد أبا العلاء يبدؤها مبدياً شديد التواضع، والتصاغر - فيقول :

« وحُقَّ لمثلي ألا يُسْأل، فإن سُئِل تعيّن عليه ألاّ يجيب ، فإن أجاب ففرض على السامع ألاّ يسمع منه ، فإن خالف باستماعه ففريضة ألاّ يكتب ما يقول ، فإن كتبه فواجب ألاّ ينظر فيه ، فإن نظر فيه فقد خبط في عشواء .... »

١٢ - ولع الصاحب بن عبّاد بالسجع :

عُرِف عن الصاحب بن عباد (٣٢٤ - ٣٨٥هـ) ولعه بالسجع ، واشتهر بين العامة والخاصة قصته مع قاضي قُمْ الذي عزله في سجعة .

وهذه قصة أخرى تبين عن ذلك أتم إبانة :

في معجم البلدان - مادة « نوبهار » - ذكر ياقوت قول أبي الفضل ابن العميد :

خرج ابن عبّاد من الريّ يريد أصبهان ، ومنزله (وَرامين) وهي قرية كالمدينة ، فتجاوزها إلى قرية غامرة [الغامر : الخراب] وماءٍ ملح لغير شيء إلا ليكتب إليّ : « كتابي هذا من النوبهار ، يوم السبت نصفَ النهار » !

١٣ - عود إلى الشعر :

أ - من رائع شعر العلماء :

- قال مؤرّج بن عمرو السدوسي :

وفارقْتُ حتى لا أبالي من انتوى ... وإن بان جيران عليّ كرامُ

فقد جعلتْ نفسي على النّأي تنطوي   وعيني على فقد الحبيب تنام

- وقال أبو محمد اليزيدي :

يافرحتا إذْ صرفنا أوجه الإبل   نحو الأحبّة بالإزعاج والعَجَلِ

نحثُّهُنّ وما يونين من دأبٍ   لكنّ للشوقِ حثاً ليس للإبل

- وقال محمد بن المستنير ، أبو علي ، المعروف بقطرب :

إن كنتَ لستَ معي فالذكر منك معي   يراك قلبي إذا ما غبتَ عن بصري

العين تبصر من تهوى وتفقده   وناظر القلب لايخلو من النظر

وقال ابن طباطبا :

لي صاحب لاغاب عني شخصه   أبداً ، وظلْتُ ممتّعاً بوجوده

فَطِنٌ بما يُوحى إليه كأنما   قد نِيطَ هاجسُ فكرتي بفؤاده

ب - تصوير الحقائق العلمية شعراً :

قال أستاذنا الدكتور محمد رجب البيومي تحت عنوان « نسبيّة » :

تلاقى سجينان في حجرة   وكلٌّ له غاية تُعْلَمُ

فشخص إذا مرّ شهر فسو   ف ينفّذ حكم به يُعْدَم

وشخص إذا فات شهر تَو   لّتْ شقاوته وغدا ينعم

أيصبح سير الزمان بعينيْـ   ـهما واحداً ، ذاك لأُيْهضَم

ج - في التغزل بأعجمية :

قال ابن ميّادة

بأهلي ماألذّ ك عند نفسي   لوانّك بالكلام تعرّبينا

كأنك ظبية مضغتْ أراكاً   بوادي الجِزع حين تبغّمينا

د - أعرابي يرثي ابناً له :

لصِقْتَ بالقلب حتى كنتَ أسْوَدَه   وبالجوانح حتى كنتَ لي كَبِدا

فَلستُ أدري وكلٌّ منك يَخْلِجُني	أكنتَ لي مهجةً أم كنتَ لي ولدا

هـ - وفي العتاب :

وقال عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير :

تَبَحَّثْتُمُ سُخْطي فغيَّر بحثُكُـمْ	سجيَّة نفسٍ كان نصحاً ضميرُهَا

ولايلبثُ التخْشين نفساً كريمـةً	عريكتُـها أن يستمرَّ مَريرُهـا

وما النفسُ إلاّ نُطفة بقـرارة	إذا لم تكدَّرْ كان صفواً غديرُها

١٤- الارتدادعن المكارم :

ذكر الراغب الأصفهاني في كتابه « الذريعة إلى مكارم الشريعة» أن الارتداد عن المكارم له ثلاث مراحل :

أولها : الكسل عن تحري الخيرات ، ويورث ذلك الزيغ الذي قال الله عز وجل فيه: « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » .

وثانيها : الغباوة ،وهي ترك النظر في حقيقة ملكوت الله ، وهو المعني بقوله تعالي : « كلا ، بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون »

وثالثها : الوقاحة : أن يرتكب الإنسان الباطل، ويراه في صورة الحقّ ، ويذبّ عنه، ىيورثه ذلك قساوة القلب كما قال تعالى: « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ، فهي كالحجارة أو أشد قسوة » .

١٥ - مما ينسب إلى الإمام علي رضي الله عنه :

« قدر الرجل على قدر همته ، وصدق الرجل على قدر مروءته ،
وشجاعة الرجل على قدر أنفته، وعفة الرجل على قدر غيرته . »

١٦ - اعتذار :

ينقل المؤلفون كثيراً في مقدمات كتبهم عبارة العماد الأصفهاني التى مفادها أنه لايكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده : لو غُيِّر هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يُسْتَحْسَن ، ولو قدِّم هذا لكان أفضل ، ولو تُرك ذاك لكان أجمل . وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر .

وقد وجدت للمنذري في آخر كتابة « الترغيب والترهيب » كلمة طيبة في الاعتذار عن السهو والخطأ . قال فيها :

« وقد تمّ ما أرادنا الله به من هذا الإملاء المبارك، ونستغفر الله سبحانه مما زلّ به اللسان، أو داخله ذهول ، أو غلب عليه نسيان، فإن كل مصنف - مع التؤدة والتأني، وإمعان النظر، وطول التفكر- قلّ أن ينفكَّ عن شيء من ذلك ، فكيف بالمملي مع ضيق وقته، وترادف همومه ، واشتغال باله ، وغربة وطنه ، وغيبة كتبه ؟! »

١٧ - عود على بدء :

روى الطبراني بإسناد حسنٍ ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ليَبْعَثَنّ الله أقواماً يوم القيامة في وجوههم النورُ علي منابرِ اللؤلؤ يغبطهم الناسُ ، ليُسوا بأنبياءَ ولا شُهَداءَ »

قال : فجثا أعرابي على ركبتيه ، فقال : يارسول الله ، حلّهم لنا نعرفهم ؟ قال : « هم المتحابُّون في الله من قبائل شتَّى ، وبلاد شتى ، يجتمعون على ذكر الله يذكرونه. »

أقلام واعدة

البيت المهجور

رزق مصطفى الراجحي

... جلس مهموما في منزله الواسع الأرجاء ، تنبعث من حديقته الغناء أصوات عذبة ، لاتحرك في سمعه السقيم أي ترانيم . إنه يناهز السبعين .

يبدو منزله ذا طراز خاص ، منظره الخارجي فريد . موقعه وحيد في الطرف الغربي من الحزام الذهبي في مدينة الزيت يربض على قمة ربوة ، بينه وبين سائر البيوت مسافات ، اقتطعها فحاز قصب السبق ، يلوِّح لباقي المنازل من بعيد !!

... لم يفكر أحد في الاقتراب من هذا البيت طوال السنين الخوالى ، إذا إن صاحب البيت الشيخ طامي ذو سطوة ومزاج حاد ، كان في آخر وظيفة له مديرا للحسابات في إحدى الشركات ، لقد أحيل إلى التقاعد منذ عشر سنوات .

إنه يجتر الذكريات الماضية بصورة سريعة في ظروف صحية بالغة الخطورة .

ارتفع ضغطه ارتفاعا عنيفا ومخيفا ، تعاوده أعراض الذبحة الصدرية ما بين فترة وأخرى وقد أنقذه الأطباء منها بفضل من الله منذ خمس سنوات ، يحاول أن يجمع شتات قواه الواهية والمنهارة ليتخلص من أعراضها التي تشبه اليد الفولاذية لعملاق أسطوري تلتف أصابعها حول عنقه، وتضغط راحتها على صدره في إحكام ، يكبر الألم من جديد يحسه كصخرة على صدره ، يحاول عبثا أن يزيحها بيدين نحيلتين مرتعشتين وجسم نحيف بحركه قلب واجف تسحقه وطأة الألم ويعتصره هول المعاناة .

... لم يعد في البيت سوى ابنته " صافية " التي تلازمه في وفاء وحسن بلاء، وفي الطرف الشرقي من الحديقة يقبع البستاني " سراج الدين " في حجرته صبورا بعد أن أصبح مثل الآثار القديمة في هذا المنزل العتيق .

لقد حذر الأطباء الشيخ من أن يعاوده المرض، لقد أخذ حذره، ولكن لايغني حذر من قدر، يستشعر دنو الأجل، بدأ يضع قدميه على طريق الآخرة، يفكر فى أمر ابنته، لقد ناهزت الخمسين ، ولم تتزوج، توفيت والدتها منذ سنوات ، وهو في طريقه إلى

الرحيل من حياتها إلى الأبد، بعد أن صنع لها مصيرا مظلما نسجته يداه الآثمتان، يضاعف من الآلام تفكير الشيخ في هذا المصير لابنته فينادي على ابنته بصوت يتحشرج فتشخص أمامه في الحال في طاعة وانكسار ورحمة تتفجر حنانا .

الأب : إنني أشعر بدنو الأجل ، أشعر بالفراق . سامحيني ياصافية يابنتي لقد جنيت عليك ، ولكن - يعلم الله - دون قصد .

... تخرج كلماته ملتاعة تخنقها الأنات في بحار الألم ، فتغرقها العبرات وتلهبها الآهات .

... تتفجر كلمات الشيخ ، فتزلزل خيال الابنة ، فيضطرب حالها ، تدور الدنيا أمام عينها ، تسابق خيالها لتتصور الخطر ، فتكتم الخوف ، وترد بشفتين مرتعشتين : بعيد الشر عنك ياأبي - أطال الله عمرك وتغرق كلماتها في طوفان الدموع الذي فاض على خديها ليطفىء نيران قلبها التي صعدت إلى وجنتيها الضامرتين ، تخنق دموعها الكلمات، فتذوب فى بحار العبرات ، وهي تسند جبينها على يديها المرتكزتين على السرير خلف رأس والدها الذي يُحتضر تدفن عينيها في راحتيها حتى لاترى مصيرها المجهول .

تختلس صافية الطرف إلى عيني أبيها الغاربتين ، تصرخ بصوت مرتعش: أبي لاتفارقني إنك كل شيء في حياتي ، لاتفارقني ، ابق معي ليس لي في الدنيا غيرك أرجوك لاتتركني ويجيبها هامساً : إنه قدر الله يابنيتي لك الله ، كيف ستعيشين من بعدي ، ... لقد أجرمت في حقك ... وها أنا أعيش لحظات الندم ... أستغفر الله ياأبى لقد ربيتني أجمل تربية ، عودتني على الطاعة ، لقد عشت لا أعصي لك أمرا .

آه .. يابنيتي ، لقد صنعت لك مستقبلا مظلما ينتظرك بعد وفاتي وترد بدموع منهمرة : معاذ الله ، أي مستقبل تقصد، نحن بخير ، الحياة رغدة ، المال كثير والبيت فيه كل ما أريد .

الأب : لقد رفضت كل من تقدم لك ، بسبب عجزهم عن دفع مهرك الذي افترضته ليتناسب مع مركزي ، ومع فتاة كانت فريدة زمانها في سن الزواج ، سامحيني كنت أريد أن أزوجك ممن يستحقك !!

كل شيء نصيب ياأبي هذا قدر الله ، إنك عوضتني عن كل شيء حتى إنك أنسيتنى فجيعة أمي الراحلة ، لاينقصني شيء اطمئن ياأبي .

... بتنهد الأب ثم يخرج نفسا طويلا يحمل آهات الندم ، ويتمتم بصوت متقطع : ليت الأيام تعود .

تسابق صافية بخيالها الزمن قائلة لنفسها : ماذا عسى أن أفعل لو رحل والدي وتركني في هذا البيت المهجور . يقطع خيالها صوت والدها طالبا منها أن تحضر المزارع سراج الدين فيحضر فوراً لايدري لم استدعي !!

الأب : وصيتك ابنتي صافية ، لاتتخل عنها . إنك وفي ، لاتغادر المنزل إلا كل ثلاث سنوات تسافر فيها لتطمئن على أولادك ، أنت أقرب إليها من أخيها ، إنه أضعف من أن يعتمد عليه ، أفهمت ياسراج الدين ؟؟

سراج : لن آخذ تأشيرة مطلقا لن أترك هذا المكان من الآن إلى أن يشاء الله ... وأولادك ما ذنبهم ؟نسيت أن أسألك عنهم كيف تركتهم قبل حضورك لماذا لم تكمل إجازتك وتبقى معهم ؟

البقاء لله ياسيدى لقد رحلوا جميعاً ورحل معهم أملي !! .

صافية في حالة ذعر : كيف كان ذلك ؟. .

سراج الدين : في الحرب الناشبة، أصابت المنزل قذيفة جعلته ترابا ، والزوجة والأولاد عظاما مكومة متفحمة . لووصلت قبل ميعاد وصولي لهم بساعات لكنت معهم. انخرط بالبكاء وغرقت صافية في دموعها على حين نطق طامي بصوت مطمئن : أحسن الله عزاك إنا لله وإنا إليه راجعون، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وفاضت روحه إلى بارئها فسكن صوته وهدأت ملامح وجهه ، يفتح سراج الدين عينيه مدققا فيعرف بخبرته أن الشيخ قد فارق الحياة ، وتلفت الى صافية المستغرقة في حزن لايوصف منذ علمت بوفاة أبناء سراج الدين ، ماذا لو اكتشفت الحقيقة المرة بوفاة والدها ؟!

تشتد الأحزان بسراج وتمتد ، يربط الصورة الدامية لأولاده الصرعى مع هذا

المصرع السريع الحزين ، تسود الدنيا أمام عينيه تضيق ، يصارع أمواج الحزن فتصرعه ، يسقط على الأرض كبناء ضخم زلزل من أركانه ، فانهار مسحوقا ككومة تراب ... تفيق الابنة على الصوت ، صوت ارتطام سراج، ترى والدها يبدو في حالة نوم محبب، تحمد الله ، تتركه فهو في حاجة إلى الراحة، وتهاتف الإسعاف لينقذ سراج الدين، ويجد رجال الإسعاف أن الشيخ قد فارق الحياة ، فيحملونه إلى المغسلة يعبر منها إلي المقبرة ، وتطوى الصفحة الأخيرة من أيام العمر السريع الزوال مهما طال.

... يغرق البيت بالمعزين والمعزيات يهدئن صافية ، يتصل فالح أخوها ليطمئن على والده ، فيستشعر الخطر فيأتي على عجل ليستطلع الخبر ، يفاجأ بما حدث فيتقبل العزاء وفي الصباح يحزم حقيبة ملابسه ، ويستعد للسفر ، يسأل أخته على عجل بحزن دافق : ماذا ستفعلين ؟ إنني مضطر إلى السفر فورا ، ليس عندي إجازات ، زوجتي وأولادي في إنتظاري .

صافية : لا أدرى ماذا سأفعل .

فالح : أنا على آستعداد أن آخذك معي، ولكنك تعلمين أن القصر الذي أسكن فيه ملك لوالد زوجتي المليونيرة ، إنك تعلمين طريقتها في المعاملة ، إذا أردت أن تأتي معي على أن تتحمليها، فلا مانع عندي .

صافية : أبقاك الله ، يا أخي تعال واسكن معي أنت وأولادك وزوجتك المنزل كبير .

فالح : أنت تعرفين أنه ليس لي وظيفة في هذه المنطقة وزوجتي لن تتخلى عن قصر والدها . يمكنك أن تبقي بالمنزل وأزورك ما بين فترة وأخرى ، سأوصى سراج الدين بك خيراً ريثما أدبر الأمر .

تمسك صافية بتلابيب أخيها وفى قلبها نيران مشتعلة حزنا على أبيها وتصرخ: ياأخي ، يا أمل الحاضر والمستقبل ، إن الإنسان موقف . أين موقفك ؟ لا تتركني لهول المصير .

فالح : هذا المصير كنت شريكة في صنعه لقد رفضت الكثيرين ممن تقدموا بحجة المظهر والمنظر ، اتركبني ، لمستقبلى وما كتب الله لى .

تنهار أعصاب صافيهة ،فتترك يداها عنق أخيها الذي يلقى السلام ، وينصرف مطمئنا إياها بكلمات لم يعد لها صدى في نفسها ، فتتفجر براكين الحسرة داخل صدرها ، تشوي نيران الحزن كبدها ، تلهب ضميرها بسياط الندم ، يضيق البيت على سعته ، يقترب الخوف من صدرها وعنقها ، يزحف بسرعة وعنف ، تدعو الله أن يجنب كل فتاة مثل هذا المصير تلوم صافية نفسها : لقد قتلت شخصيتي ، لقد كنت سلبية للغاية عندما كان الوالد يستشيرني في أمر زواجي ممن لايرضى عنهم . أصبح الخوف غولا رابضا ينتظر الخلاص منها ومعه أعوانه: الوحدة والوحشة وظلام الليل القادم، إنها لاتقوى على الجلوس في البيت النائى دون رجل إنها ستفقد الكثير لو سافرت مع أخيها ، إنها لو سافرت ستحافظ على حياتها ولكنها ستفقد ما هو أغلى من الحياة، لقد فاتها قطار الزواج ، ترى هل يرغب فيها أحد بعد هذه السن وتنبهت للبستاني لو تزوجته لكان خيراً كثيراً ولأصبح دخوله عليها فى المنزل شرعيا وتقطع ألسنة الناس وتنجو من مواطن الريبة ؟ أم هل تغلق عليها بابها وتصارع الظلام القاتل والوحشة الخانقة ؟

وتركت الأمر لصاحب الأمر وقد كان بها رحيما وشفيقاً حيث تم زواجها من سراج وابتسمت لها الأيام إلى أجل ....

قراءة فى كتاب

عرض كتاب : الافصاح فى فقه اللغة

اعداد : صلاح عبد الحميد الأزهرى

مقدمة :

الكتاب الذي بين أيدينا اليوم هومحاولة لاحياء تراثنا اللغوي في ثوب عصرى نحن فى حاجة ماسة إليه لكى تكون كنوز لغتنا العربية الفصيحة فى متناول أيدينا سهلة المنال توفي ما يسعف كل باحث ودارس ومترجم باللفظة المناسبة الدقيقة الفصحية المعبرة عن اسم شىء أو صفته أوجزء منه أو حالة معينة .

أما الدافع وراء اختيار هذا الكتاب بعينه فهو اعتقادى بأنه أول عمل من نوعه فى بدايات القرن العشرين من باحثين متخصصين فى مادتهما ضليعيين فى لغتهما ، بذلا فيه الجهد والعرق والوقت بذل المحب لحبيبه والعاشق لمعشوقه .

اسم الكتاب : الافصاح فى فقه اللغة

المـؤلفان : - عبد الفتاح الصعيدى - عضو مجمع اللغة العربية بمصر .

- حسين يوسف موسى - المفتش الأول بالتعليم الثانوي بمصر .

سنة الانتهاء من وضع الكتاب : شهر المحرم ١٣٤٨ هـ الموافق شهر يونيو ١٩٢٩م

الانتهاء من الطبعة الثانية : عام ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م

التقديم للكتاب : - الاستاذ عباس محمود العقاد . - الاستاذ محمود ناصف

الطابع والناشر : دارالفكر العربي - القاهرة .

التعريف بالكتاب :

يعتبر كتاب الافصاح فى فقه اللغة أحد معاجم اللغة العربية ذات الطابع الخاص، وأقصد بالطابع الخاص هنا أنه ليس معجماً عاماً فى اللغة العربية كلسان العرب لابن منظور، أو القاموس المحيط للفيروز أبادى أو غيرهما من معاجم اللغة التى رتبت طبقا للترتيب الأبجدي للحروف العربية ثم تتناول بالتفسير والشرح لكل مشتقات المادة الثلاثية أو الرباعية الحروف ومصادرها كما هو معروف .

أما كتابنا هذا الذى بين أيدينا اليوم فهو معجم متخصص في صفات وأسماء

ومظاهر الحياة المختلفة من انسان وحيوان وطيور وجماد وفلك وبحار ... وذلك بذكر اللفظة العربية الفصحية الدقيقة لكل تطورات وصفات الكائن الحى ، وكذا اللفظة العربية الفصحية لكل المعانى اللازمة لحالات الانفعالات الانسانية من فرح وغضب وصداقة ويأس وأمانة وخيانة وشراسة ولطف ... الخ .

أصول الكتاب :

كما ذكر المؤلفان أنها قد لمسا حاجة الكتّاب والعلماء لمصدر حديث يستقون منه اللفظ الفصيح فى كتاباتهم وترجماتهم بدلاً من مشقة الرجوع إلى قواميس اللغة وبطون المصادر القديمة للظفر بلفظ يوفى حاجتهم ويحقق بغيتهم ،فعمدوا إلى أجود الكتب المؤلفة فى هذا المضمار وهو « المخصص » لابن سيده ، فوجداه كما قالا : « أرفع هذه الكتب جناباً وأوسعها رحاباً وأحكمها نظاماً وتبويباً وأفضلها تنسيقا وتهذيبا » .غير أنهما وجداه أيضا » عباب خضم وعيلم غطم ، يؤيد رواياته الكثيرة بشواهده المنظومة والمنثورة ، ويعزز ما يورده بآي القرآن الكريم والحديث الشريف ومأثور القول، ويستطرد اذا برقت بارقة أمل فى الاستطراد فيشرح ما نال الكلمة من إعلال وإبدال، ويسوق فى هذا السبيل ما سقط له من أقوال الأئمة واللسن الفياصل ، ويشبع المقال بسطاً وسعة بما يمتع المتفقه المتضلع ويشفى غلة المتجر المتوسع ، فرأيناه بحاله هذه مرجع الخواص ولايسهل على غيرهم الانتفاع بما فيه ، هذا الي ندرة وجوده وصعوبة الحصول عليه . »

تهذيب « المخصص» لابن سيده :

بناء على ماقرره المؤلفان من صعوبة استعمال كتاب « المخصص» لابن سيده الاّ للمتفقهين والمتخصصين فى اللغة العربية ورغبتهما فى اصدار مرجع سهل المنال لكل كاتب وطالب علم وباحث ، فقد قاما بتبسيط هذا المرجع وتهذيبه وتنقيحه وتحقيقه وترتيبه على الوجه الذى تتحقق به الفائدة للجميع فى تناول سهل يسير .

فعمدا اليه كما قالا: «عمدنا اليه ، وانتخلناه انتخالاً، واستخرجنا مصاصه واصطفينا لبابه ، وتحققت فيه لبانتنا، وأبردنا بعذب مورده غلتنا، تاركين رواياته وشواهده الكثيرة ومالاتدعو اليه الحاجة فى الاستعمال الذائع، وأثبتنا من الروايات أتمها مادة وأظهرها معنى وأوفاها اشتقاقا ... »

مصادر أخرى لكتاب الافصاح فى فقه اللغة :

لم يقتصر تأليف كتاب الافصاح على تهذيب كتاب « المخصص » لابن سيده، بل

عمد المؤلفان إلى المعاجم البارزة لتمحيص مؤلفهم وإكمال نقصه وإصلاح عوره، يقولا في ذلك :« قرأنا بعد ذلك القاموس المحيط بأكمله، وفقه اللغة للثعالبى كذلك ورجعنا الي المختار والمصباح واللسان والأساس ومبادىء اللغة والتذكرة واستخلصنا من الجميع ما نريد عن «المخصص» مما تمس الحاجة اليه، وأضفنا ذلك كله الى الكتاب كل كلمة تحت ما يناسبها من الأبواب . »

طريقة اخراج كتاب الافصاح فى فقه اللغة :

أولاً : تناول كتاب « المخصص » لابن سيده بتغير نظام بعض الأبواب وعناوين الموضوعات مما دعا اليه نظام الكتاب الجديد .

ثانيا: الاحتفاظ بعبارات الكتب التى استقيا منها مادة الكتاب ، فذكراها بنصها وفصها مع عدم الاصلاح من العبارات أو التصرف فى الألفاظ .

ثالثاً: عمد المؤلفان فى الطبعة الثانية الى زيادة عدد المواد اللغوية التى تشد اليهاالحاجة فى التعبير عن المصطلحات الأجنبية .

رابعاً : التوسع فى المواد بذكر ما فيها من صيغ الأفعال ومشتقاتها حتى يتيسر التصرف فى الكلمات وفقا للحاجة اليها دون الرجوع الى معجم آخر .

خامساً : ذكر بعض المترادفات للمعنى الواحد قصداً الى ايجاد ثروة لفظية يمكن بها تخصيص لفظ لكل معنى اذا تعددت المعانى فى العلوم المختلفة ليكون لكل معنى لفظ عربى يؤديه بصيغته دون اعتماد على القرائن .

سادساً : تم وضع « نجم » في الهامش أمام كل مادة على حدة حتى يمكن الرجوع الى المعجم الأبجدي بالكتاب .

سابعاً: ألحق بالكتاب معجم يجمع مواده اللغوية مرتبة حسب الحروف الهجائية، وأمام كل مادة أرقام صفحاتها ليكون الكتاب معجما للألفاظ كما أنه معجم للمعانى.

وتحرى المؤلفان فى ترتيب الكلمات حروف هجائها أصلية كانت أم زائدة ليكون الرجوع اليها سهلا على الكاشفين أجمعهم .

ثامنا: تحلية الكتاب بصور بعض الحيوانات والنبات والشجر والطيور والسمك والحشرات والأدوات حتى يزداد المعَّرف وضوحاً ويزول عن المبهم بعض ما أحاط به من إبهام .

استعراض الكتاب :

الطبعة التى بين أيدينا من كتاب « الافصاح في فقه اللغة » هى الطبعة الثانية والتى انتهت طباعتها عام ١٣٨٤هـ الموافق ١٩٦٤ م ، وقامت بطباعتها ونشرها دار الفكر العربى بالقاهرة.

قسم الكتاب الى جزئين لكل جزء فهرس خاص به :

الجزء الأول :

ويقع فى ستمائة واثنتين وستين صفحة من القطع الكبير ، ويبدأ بتصدير للأديب الكبير المرحوم الاستاذ عباس محمود العقاد ، وكلمة الأستاذ الأديب محمود ناصف ، ثم مقدمة المؤلفين للطبعة الأولى تتلوها مقدمتها للطبعة الثانية .

يحتوى الجزء الأولى على أحد عشر باباً ، قسم كل باب الى عدة فصول ضمنية فى صورة عناوين فرعية . وقد بدأ بباب « فى خلق الانسان» ومنتهيا بباب « فى السلاح والقتال والضرب والموت والحزن والبكاء » . واذا عدنا الى استعراض محتويات الباب الأول وجدناه يتفرع الى عناوين مثل : الحمل والرضاع والفطام ، جسم الانسان،... وبالرجوع الى العنوان الأول وهو « الحمل والرضاع والفطام » وجدناه أيضا يتفرع إلى عدة عناوين فرعية أخرى مثل : الحمل وتدرجه ، اسقاط الحمل ، الولادة وحالاتها ، التوليد ، ... ثم الرضاعة ، الحضانة ، ثم الشباب ، الكهولة ... وهكذا .

أما عنوان « جسم الانسان » فيتفرع أيضا إلى عناونين فرعية مثل : الجسم والبدن - الأذن - الوجه - العين - الأنف - الفم - الصدر .. وهكذا تتوالى التقسيمات الفرعية فاذا نظرنا الى عنوان « الأسنان» مثلا نجد تفرعات أخرى معنونه تحت : عامة الأسنان - السن الزائد - أسماء الأسنان - بياض الأسنان - تباعد الأسنان - الأنياب - الضروس - طول الأسنان وقصرها ... وهكذا تتدرج التقسيمات الفرعية تحت عنوان واحد حتى تصل الى أدقها فى التعبير عن أصغر جزء من أجزاء جسم الانسان والى أدق معنى لصفة من صفاتها وذلك بلفظ عربى فصيح كأنه قد اختص للتعبير عن هذا المعنى دون غيره .

ولاتقصر محتويات الجزء الأول من الكتاب على ألفاظ أجزاء الانسان المادية فقط بل إن هذا كله هو محتوى الباب الأول ، أما الأبواب التالية فقد حوت أوصاف الانسان الخلقية والخُلقية كالطول والقصر ، والقوة والضعف ، والصفات المستحسنة من مروءة

وحب ووفاء وكرم ... وصفات غير مستحسنة كالنسيان ، والغفلة ، والجبن والجهل والحمق ... وهكذا .

ثم استطرد المؤلفان بعد ذلك فى هذا الجزء من الكتاب بتناول كل الألفاظ المعبرة عن المظاهر الانسانية المختلفة مثل : الكلام والكتابة وأدواتها ، والأخبار والأصوات والمشى والطريق ، والنوم ، والأنساب ، ونعوت النساء والزواج ، وما صنعه الانسان من حلى وثياب وأوانى وأحذية وآلات ، وما يفعله من طبخ وأطعمة وأبنية ، والى أسماء الخضر والبقول والألبان والعسل ، وما يصيبه من أمراض ، وما يلجأ اليه من علاج ، وما يستوطنه من أوطان وأقاليم وبيوت ومساكن ودور ، وما استخدمه من أدوات كالسيوف والسكاكين والرماح والسلاح والذخيرة والآلات المختلفة ...

أما أخر أبواب هذا الجزء الأول من الكتاب فهو الباب الحادى عشر وقد عنون بعنوان « فى السلاح والقتال والضرب والموت والحزن والبكاء » وتحت هذا الباب يذكر جميع أسماء وصفات الأسلحة القديمة بالطبع وصفات الجيوش وانواع الحروب وطرق الموت والأسر والدفن والعزاء ... الخ .

الجزء الثاني :

وهو أكبر حجما من الجزء الأول ويقع فى سبعمائة وتسع وعشرين صفحة من القطع الكبير أيضا ، مسلسلة من صفحة ستماءه وخمس وستين حتى صفحة ألف وثلاثمائة وأربع وتسعين [من ٧٢٩ - ١٣٩٤]

وألحق بهذا الجزء « معجم مواد الافصاح » فى (٨٣ص) ثلاث وثمانين صفحة .

أما عدد أبوابه فهى اثنا عشر بابا تبدأ من الباب الثانى عشر بعنوان « فى الخيل والبغال والحمير والابل والغنم » حتى الباب الثالث والعشرين بعنوان « فى الخلق والعالم وأصناف الأشياء وأحوالها » .

وقد تناولت أبواب هذا الجزء الثانى من كتاب الافصاح أغلب اسماء الحيوانات والطيور والحشرات والنبات والمياه والأرض والتجارة والآلات والعبادات والديانات والألوان ... الخ .

معجم مواد الافصاح :

وهو ملحق بالجزء الثانى من الكتاب وكما ذكرنا من قبل يقع فى (٨٣) ثلاث

وثمانين صفحة، يورد اللفظة ورقم الصفحة التى توجد بها شرحها ومعلوماتها ، وهو مرتب حسب الترتيب الهجائي للحروف العربية.

وهذا المعجم هام جدا لمن أراد أن يبحث عن معنى لفظة بعينها مثلما يبحث فى أي معجم أخر، ولكنه يمتاز عنها بالتخصص فى محتويات كتاب الافصاح من المصادر والأسماء فقط فكل ألفاظ المعجم مبدوأة بأداة التعريف « أل » مثل :

الآء - الآياة ، الباءة - البينونة ، التأبط - التيهور ، الثأد - الثيل ، الجاب - الجيئة ، الحاب - الحيقط ، الخابية - الخيفان ، الداء - الديماس ، الذآبة - الذيبان ، الرءاس - الرئم ، الزاج - الزئنى ، السأب - السية، الشاء ، الشئيت ، الصاب - الصيء ، الضأر - الضيون ، الطابون - الطيطوى ، الظأظأة - الظئر ، العاتك - العيهب ... وهكذا

نقد الكتاب :

أولا : مما لاشك فيه أن الجهد الذى بذله المؤلفان لاخراج هذا الكتاب إلى النور جهد يستحقان عليه الشكر والثناء ، وكما نوه عن هذا أديبنا الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله فى تصديره للكتاب بقوله «قد علمت أن الفاضلين اللذين صنفا هذا الكتاب قضيا سبع سنوات فى قراءة « المخصص لابن سيده » ومعارضة أبوابه والاضافة اليه من الكتب التى تشبهه ، فهذا صبر يحق له أن يشكر ويقتدى به ويستفاد منه ... »

وكما نوه الأستاذ محمود ناصف رحمه الله فى كلمته فى مستهل الكتاب قائلا « لقد أخرجاه عملا خطيراً لا رأياً فطيراً »، وأنهما « لم يقصدا فى تهذيب المخصص الى مجرد الاختصار بحذف المكرر والتقديم أو التأخير وادغام الأبواب بعضها فى بعض ، بل هما شاركا المؤلف الأول فى تحمل التبعة واقتسام العهدة ، فتعقباه وخاصماه إلى معاجم اللغة ، ولم يتبعاه فى الإبهام والإحالات ، فلم يقولا دائما فى تفسير نبات أو حيوان مثلا : نبات معروف ، أو حيوان معروف ، بل يحددانه إما بالعبارة أو بمرادف شائع . »

ثانيا : إلاّ أننا نجد أن المؤلفين نفسيهما قد أعلنا أن بالكتاب كلمات كثيرة قد يعدها بعض المتأدبين فى هذا العصر غريبة لاينطبق عليها ما يشترط البلغاء من فصاحة الكلمة ، ولكنهما رأيا أن كلا منها يؤدى معنى خاصا يصعب أو يتعذر العثور على

ألفاظ عربية أخرى تؤدى هذه المعانى ، لهذا أثرا ذكر تلك الألفاظ لتسد حاجة العلماء فى دقة أدائها للمعاني المقصودة منها واللفظ العربى مهما كان حاله أولى بالاستعمال وأحق من غير العربى ، ولغة العلم غير لغة الأدب ....

هذا اذن اقرار من المؤلفين باحتواء مؤلفهما على الغريب من الألفاظ الشاذة على الأذن ، وهو إقرار منهما بعدم فصاحة تلك الألفاظ مع أنهما يهدفان طبقا لعنوان الكتاب الى الفصاحة بل الافصاح فى اللغة ... ومن هنا نرى تناقضا بين ما هدفا إليه وما أحوياه بمؤلفهما ، وإن كان هذا لاينتقص من جهدهما ولا من قيمة ما هدفا إليه إلا أننا كنا نطمع فى أن ينمو هذا المؤلَّف الذى بين أيدينا الى تحقيق ما اختاراه عنوانا له ألا وهو الافصاح فى اللغة، وذلك بترك الغريب المتقعر والميل الى السهل الميسر، مع استخراج اللفظ الجديد إمّا اشتقاقا أو تعريبا أو بأى تصرف آخر ليكون فى متناول الأديب والعالم على حد سواء .

واذا كان المؤلفان قد أقرا بأن لغة العلم غير لغة الأدب فقد فاتهما أن المقصود هو أسلوب الأديب البلاغي وأسلوب العالم التقريرى ، لكنا هنا بصدد الألفاظ الدالة على المعانى وهى من حق الأديب والعالم أن يستخدماها سويا .

وكأنى بالمؤلفين قد أدركا هذا فعادا إلى تسمية الكتاب الى « الافصاح فى فقة اللغة » بدلا من « الافصاح فى اللغة » فقط ، من هنا ندرك أن ماجاء بهذا الكتاب انما هو للمتفقه فى اللغة وليس لمستخدم اللغة ، اذا جاز لنا هذا التخريج .

ثالثا: ذكر المؤلفان أنهما قد أبقيا على كثير مما أورده القدماء من التعريفات والتعبيرات عن المعانى المختلفة ، فأورداها بفصوصها وللعلماء المحدثين آراؤهم فيها وفى امكان الملاءمة بينها وبين ما وصل اليه التقدم العلمى والحضارة الحديثة .

وهذا أيضا اقرار منهما بأن هذا المعجم قد لايلائم تطور العصر الحديث فى العلوم والتقنية ، ومما لاشك فيه أن الافصاح غير ذلك فالقصد من الفصاحة هو ايصال المعلومة أو المعنى بلغة مفهومة ميسرة تحقق الفائدة المرجوة .

والأمل أن تصل معاجمنا الحديثة الى ما وصلت اليه المعاجم الأجنبية وخاصة الانجليزية فى مسايرة محتوياتها لحاجة العصر ومتطلباته سريعة الخطى بجانب الابقاء على القديم أيضا والتطور التاريخي للفظ وذلك حتى يمكننا نقل العلوم والمعارف الجديدة واللحاق بالعالم الحديث دون تعثر أو عوائق .

رابعا : أجاد المؤلفان اذ ذكرا بعض الكلمات فى أكثر من باب واحد وذلك لتعدد معانيها حتى يجد الباحث ما يريد حيث مظنه وجوده ، وهذا يدل على خصوبة اللغة العربية وثرائها وهو مظهر من مظاهر العربية تختص به دون كثير من اللغات الأخرى .

خامسا : ألحق المؤلفان بالكتاب معجماً يجمع مواده اللغوية مرتبة حسب الحروف الهجائية ، وأمام كل مادة أرقام صفحاتها ليكون الكتاب معجما للألفاظ كما أنه معجم للمعانى ، وهذا لعمرى عمل عظيم يسهل الكشف عن معنى أى لفظة يقصدها الباحث ، وكنا نود لو أن هذا التريب المعجمى قد شمل كل أبواب الكتاب فتم ترتيبها حسب الحروف الهجائية كالمعاجم الأخرى ، لكنا نجد أن الكتاب قد بدأ بباب « خلق الانسان » وهو على حرف الخاء ، ثم باب أوصاف الناس الخلقية والخلقية » على حرف الهمزة ، واذا كان المؤلفان قد اتبعا الترتيب المنطقى لأبواب الكتاب فبداه بباب «خلق الانسان » ثم أخلاقه ... وهكذا إلا أننا نجد أنهما بعد ذلك قد جنحا عن هذا المنطق فأوردا الباب الثالث فى « الكلام والكتابة » وبعده الباب الرابع فى « المشى والطريق والنوم » ثم الباب الخامس فى « النسب والقرابة » فالسادس فى « الزواج والنساء والحلى » ... فمن الواضح عدم الترابط أو التسلسل المنطقى فى ترتيب الأبواب تحت هذه العناونين ، فكان من الأجدر ترتيبها على الحروف الهجائية حتى يسهل على القارىء استخدام الكتاب بأعتباره عملا معجميا متخصصا .

سادسا : على الرغم من بعض الهنات التى تؤخذ على معجم الافصاح الاّ أنه يعتبر عملاً فريداً فى حد ذاته غير مسبوق فى العصر الحديث ، وهو متميز عن المعاجم اللغوية التى تحتوى المواد اللفظية وما يتفرع عنها من المصادر والأفعال والاسماء وجموعها ومشتقاتها وتشرح معنى كل لفظة واستعمالاتها ومرادفاتها .... الخ .

لكن معجم الافصاح يقتصر فقط على المصدر والاسم ثم يحيل الى رقم الصفحة التى بها الشرح والتفسير وهذا مفيد بلا شك لمن يقرأ العربية ويصطدم بلفظة لايدرك معناها ، حينئذ يلجأ الى هذا المعجم إن كان يملك كتاب الافصاح أو يستطيع الاطلاع عليه فى مكتبه ما .

وأرى أنه من الأجدر أن يكون هذا المعجم الذى يعمل عمل الفهرس أيضا فى نفس الوقت فى مقدمة الكتاب قبل الجزء الأول ، ليبدأ الباحث عن ضالته حتى اذا وجدها لجأ الى الشرح والتفسير فى أبواب الكتاب طبقا لأرقام الصفحات التى يشير اليها المعجم ،

فذلك أفضل من أن يصطدم بالجزء الأول ثم بالجزء الثانى حتى يعثر على المعجم فى نهايته .

سابعا : بالرغم من الزيادات والتنقيحات التى أدخلها المؤلفان على الطبقة الثانية التى بين أيدينا الا أننا نرى أنها بحاجة أيضا الى تنقيح واضافات فى الملاحق والفهارس والتبويب ، وياحبذا لو شكلت لجنة تابعة لمؤسسة علمية أو لمجمع اللغة العربية لاخراج كتاب الافصاح فى فقه اللغة فى ثوب حديث قشيب يسهل لقراء اللغة العربية عامتهم بعد خاصتهم من باحثين ودارسين ومترجمين استخدامه والاستفادة التامه منه كما رجاها مؤلفاه .

ولايسعنا إلاّ أن نسأل الله العلى القدير أن يرحم مؤلفى هذا العمل الرائع ويتغمدها فى نسيج جناته على مابذلاه من جهد وماقصداه من قصد فى سبيل تيسير لغة الضاد واحلالها المكانة اللائقة بها ونفض ما تراكم على كنوزها من غبار النسيان والاهمال .

بين بيادر وقرائها

تقرير حول العدد السادس عشر

من ملف بيادر الثقافى الإبداعى

الصادر فى شعبان ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

بقلم: ناقد

(١)

يقع الملف فى أربع وأربعين ومائة صفحة ، تتميز بطباعة جيدة ، ولها غلاف لامع جذاب .

ولعل أول مزية للعدد السادس عشر من هذا الملف : أن أول مايصافح القارىءَ بعد الصفحة المخصصة لهيئة التحرير - هو محتوياتُ العدد ، لأن جعل دليل العمل - أيا كان - فى بدايته يُعدُ حسنة من حسنات هذا العمل .

ويحتوى هذا العدد - بعد الإشارات للمشرف العام ، والافتتاحية لرئيس التحرير - على الأتى :

١ - ثلاثة بحوث ؛ فى مجالات : الفقه ، والنقد الأدبى ، وتاريخ الدعوة .

٢- رأيان في قضية البيئة .

٣- أربُع قصائدَ في قسم الشعر .

٤- ثلاثُ قصص قصيرةٍ فى قسم القصة .

٥- استراحة عنوانها : فى رياض الأدب .

٦- قصة وثلاثُ قصائد فى قسم الأقلام الواعدة .

٧ - عرضٌ لكتاب يتعلق بالبيئة .

٨ - ختامٌ : « بين بيادر وقرائها » .

وواضح أن هذا العدد من ملف بيادر لايختص بجانب معين من جوانب الحياة العلمية أو الفكرية ، بل إنه يحاول أن يكون له وجود فى مجالات متنوعة ؛ فهو يحوى

- إلى جانب الإبداع الأدبى - دراسات وآراءً فى قضايا تتصل باهتمامات الناس ؛ كالفقة ، والبيئة ، أو موضوعات لها أهمية لدى المتخصصين من العلماء ؛ مثل إعادة كتابة التاريخ الإسلامى ، بالإضافة إلى القاء الضوء على بعض أعلام الدعوة الإسلامية فى أفريقيا؛ مما يشير إلى شمولية التناول فى الموضوعات .

والذى أود بيانه : أن هذا التقرير لايشتمل على آراءٍ قاطعة ، أو أحكام تتسم بالجزم والقَطْع ، لأن هذا الأمر بعيدٌ عن طبيعة الدراسات الإنسانية بعموم ، وإنما هي آراوء، قابلة للمراجعة ، ووجهات نظر تحتمل الصواب والخطأ ، اللهم إلا فيما يتعلق بقواعدَ غيرِ مُخْتَلَفٍ عليها ، وضوابطَ لاتحتمل التأويل ، ولاتقبل الاختلاف .

ولعل من الأفضل أن نتابع السير مع محتويات العدد كما هى فيه ؛ فقد يكون هذا أدعى إلى هدوء التعليق من ناحية ، وكونه متصلاً بالموضوع الذى يحتاج تعليقاً من ناحية أخرى .

يبد أنني أبدأ بملاحظة عامة تتعلق بالناحية اللغوية ؛ فقد يكون من غير المعتاد - في التحكيم - التوقف عند اللغويات - فى كثير من الأحيان - تستدعى التنبيه عليها ، وجذب الانتباه إليها ، ليس لأهميتها فحسب؛ بل لأن لها دوراً كبيراً فى تحديد الأرضية الفكرية التى يقف عليها الكاتب ، وينطلق منها ؛ فاللغة - ألفاظاً وتراكيبَ - مؤشّر على الثقافة العامة ، ومعرفة قواعدها - نحواً ، وصرفاً واشتقاقا - دليل على البراعة والحِذْقِ فى الكتابة .

وقد يكون ممكناً - بل نراه حسنا - أن يتغاضى المناقش أو المحُكَّمُ عما قد يعد من قبيل الأخطاء المطبعية التى لم تراجع بدقة على يد الكاتب نفسه ، أو على أيدى القائمين على أمرالطباعة ، وأظهر مثل على ذلك فى العدد " كتابة همزة القطع تحت الكلمات التى تبدأ بهمزة وصل : أفعالاً كانت أو أسماء ، وهى منتشرة عبر العدد كله بصورة واضحة لاتحتاج أمثلة .

أما الأخطاء اللغوية ، فإن التنبيه عليها من الأهمية بحيث يعين على تدارك السهو ، وتذكر المنْسيِّ من القواعد ، إلى جانب أنه دعوة إلى الحرص على هذه اللغة الشريفة !

ولن نستقصى الأخطاء كلها فى العدد كله ، بل نكتفى بإيراد بعض الأمثلة على مانراه خروجاً على القاعدة .

* الهمزة بعد حيثُ ، وإذْ مكسورة ، لأن كلا من هذين الظرفين يضاف إلى الجمل، وأيضاً تكسر الهمزة بعد بل ، وحتى .

وقدوردت الهمزة بعد هذه الكلمات مفتوحة ؛ مثل :

صـ٩ س ٩ حيث أن النهوض العلمى

صـ٩ س١٨ إذ أن كثرة الكماليات

صـ٨٤ الأخير حيث أنهم

صـ٨٨ س٦ ، ٧ بل أنها

* كثيراً ما تجيء الفاء بلاسبب مقنع لمجيئها ، وهى بهذا لا قيمة لها ،ولا سند يَدْعَمُها ، والأوْلى حذفها ، وتغييرُ العبارة بما لايُعمِّي الفكرة.

وقد شاع على أقلام كثير من الكتاب شيوعاً ظاهراً أن يقال : « ومن ثم فقد ، أو : ولذا فقد ، أو " ومع ذلك فقد ، أو : وعموما وبعموم فقد .... » حتى أصبح مثل هذا (الكليشبه) التعبير ىٍّ لازمةً من لوازم الكتابة عند المتخصصين من أهل اللغة .

ونحن نرى أن الفاء فى مثل هذه العبارات أولى بالحذف ، ولن يقدح حذفها فى صحة التركيب ، ومن ذلك :

صـ١٢ ، السطر الأخير : وعلى هذا ، فهذا العصر .... يمكن تعديلها إلى : وعلى هذا ؛ يشمل عصر الصحابة المدة ...

صـ١٨ س٣ من أسفل : ولذلك فإنه كان يقول ... حَذْفُ « فإنه » لايعيب الجملة.

صـ٣٥ س١ ، ٢: ومع ذلك فمزاعم .... ممكن أن يقال : ومع ذلك تبدو مزاعم...

صـ ٦٥ س١٦ : فسَرْعَانَ تحذف الفاء

صـ٦٩ س٤ من أسفل : ومن ثم فيمكن .... الصواب : ومن ثم يمكن

صـ٨٢ س٦ من أسفل : وانطلاقاً من ذلك فقد تم ... تحذف فقد

صـ١٤٠ س٥ : لذا قد جاء ... الصحيح : لذا جاء

* لا أدري لِمَ تدخل الواو على اسم الموصول الواقع نعتاً ، حتى إن هذا الأمر كاد يشكّل ظاهرة تعبير به لدى الكُتَّاب والمحاضرين ، فلا قيمة للواو قبل اسم الموصول الذى جاء نعتاً لما قبله ، ونحن تشير فقط إلى بعض هذه النماذج ؛ مكتفين بالصفحة والسطر :

صـ ٦٣ السطر الأخير ، صـ ٦٤ س١ ، س١٢ ، صـ٦٥ ، س٢ . ١ من أسفل ، ص٧٦ س٩ .

* الأفصح أن بينمالها الصدارة فى الكلام ؛ فلا يجوز وقوعها بعد بداية الجملة ، وفى العدد السادس عشرهذا تكاد بينما تفضّلُ وقوعَها بعد بداية الكلام ، مثال ذلك ماورد في :

صـ ٣٧ س٥ من أسفل ، ص ٥٨ س ١ . ٥ . ٩ ، صـ٧٥ س١٤ صـ٧٦ س١١ .

* ومن الفصيح - أيضاً - أن تُستعمل (بعض) مجردةً من « أل » كما جاء بها القرآن الكريم ، وقد وقع الكُتّاب جمعُيهم فى هذا الملحظ ، فأدخلوا أل على بعض ، ولم نأت مجردة إلا في عبارة واحدة تقريبا ؛ هى: « وهى دعوات بعضها فج ، وبعضها الأخر ينبع من صميم القلب ... » صـ ١٣٧ س١ .

وأما دخول أل علي بعض فقد كاد بستتغرق التعابير كلها ، مثل : صـ٣٤ س٣ ، صـ ٨٠ س ٥ ، صـ١٣٦ الأخير .

* استعمال بعض المشتقات فى غير دلالتها اللغوية الصحيحة ، وأشهر مثال - على ذلك كلمة بسيطة » التى تجيء غالباً فى مقابل المركب ، أو المعقد ، أو الصعب، وما اشتق منهما من : بساطة ، وبسط ، وتبسيط ، وبسيط . والكلمة فى مادتها اللغوية تفيد الامتداد والاتساع ، ولعل خيراً فى الدلالة أن يستعمل بدلاً منها نحو: السهل، اليسير ، التيسير ، الهينّ .

ونشير إلى بعض مواضع مجيء كلمة بسيطة التى توحى العبارة بأن معناها :

اليسيرة ، الهيّنة ، في :

صـ٧٦ س٨ ، صـ٨٧ س٣ ، س٨ ، صـ١٠٤ س٢ من أسفل ، صـ١٣١ س٤ .

– ومن هذا الاستعمال كلمة العزوبية ص ١٢٢ س٢ ، وصـ١٢٤ س٧ وصحتها : العُزوبة .

– واستخدام كلة ساهم بمعنى تقديم سهم المشاركة ، والأفصح : أسهم ، فقد ورت ساهم في غير مكان من العدد ؛ نحو :

ص٥٧ س٢ ، صــ٨٢ س٥ ، صــ٨٤ س : ١٦ . ١٧ . ١٩ ، صــ ١٣٢ س٦ ، صـ١٤٢ : س٣ . ٢ من أسفل .

– وكلمة تقييم التي نرى أن الصواب فيها : تقويم ؛ لأن أصل المادة الواو .

– وكلمة يعتبر التي نرى أن الصواب فيها : يعد ، أو يحسب ، لأن للاعتبار معنى يغاير الحُسبان والترجيح !

– وتعدية الفعل أثّر ومشتقاته بحرف الجر على ، والصواب – كما نرى – أن التعدية أولى بها حرفُ الجر في ؛ فيقال : أثرّ في ، والتأثير في . وهكذا .

– ومجئ كلمة الفترة بمعنى المدة الزمنية ، والفترة معناها مختص بما بين كل رسول من رسل الله ﴿ﷺ﴾ .

– واستخدام أثناء ظرفاً دون أن يُسبق بحرف الجر في ، والصواب : في أثناء هذا .

وقد تجيء بعض الوقفات اللغوية في أثناء استعراض ما في العدد .

الافتتاحية :

- من الأخطاء النحوية فى الافتتاحية ، قول الكاتب صـ٨ « سوف نناقش في كل افتتاحية من هذا العدد والأعداد التى تليه موضوع واحد ... » فعلام الرفعُ في (موضوع واحد) ؟ وهو مفعول به لننا قش ؛ فإذا أريد بقاء الرفع ،وجب جعل الفعل «يُناقش » بالبناء للمجهول .

- ومما يُوقعُ فى اللَّبْس قول الكاتب ص ١٠ : « ... ويوجهوا طلابهم الوجهة السليمة المنطلقةً من اتخاذ كتاب الله وسنة رسوله ﴿ﷺ﴾ ، ... » اتخاذهما ماذا ؟

إن العبارة تحتاج إضافة كلمة أو كلمات ليرتفع اللبس، وليكن - مثلا- " وسيلة لتحقيق الغاية ».

- ولانشك أن الكاتب سها قلمه في قوله صـ ١٠ : « وصرفه (يقصد الوقت) فيما يضر ولاينفع » وترتب على سهو القلم سهو الطباعة وسهو المراجعة ، فالكاتب يقصد : « فيما ينفع ولايضر » .

- حسنا فعل رئيس التحرير حين ترك عرض موضوعات العدد فى الافتتاحية ؛ فكأنه أراد أن تَعْرِضَ الموضوعات نفسَها على القارىء بلا حكم مسبق، وهذا حياد يذكر للرجل ، وأحسن أكثر حين آثر أن يناقش إحدى القضايا التى تستأثر باهتمام المجتمع كله ، وقد اختار فى افتتاحية هذا العدد قضية التعليم .

ولو أنه عمم الحديث عن التعليم فى الوطن العربى والإسلامي لكان النفع أعم ، وإن كانت تتبدّى فى إشاراته مشاعر عامة لاتقتصر على بلد معين .

وليس من ملاحظة على مناقشة هذه القضية الخطيرة إلاَّ غلبةُ روح الخَطَابة بزنينها فى قوله ص ٩ : « فإنه يجب علينا يامعشر المتعلمين والعاملين فى قطاع التعليم... »، فالأليق بجو المناقشة الهادىء أن يقال : فإنه ينبغى للمتعلمين والعاملين فى قطاع التعليم أن يراعوا ... » وشتان بين الخطابة الهادرة والمناقشة الهادئة ، وإن كان كل منهما صادقاً .

وليسمح لنا رئيس التحرير أ ن نتساءل " هل يكون المعلم قدوة حسنة لنفسه ؟ وإذا كان الجواب إيجاباً . وهو ممكن تصوراً وواقعا . فكيف السبيلُ إلى ذلك ؟ إنها جزئية كانت تحتاج تجلية ؛ ليفيد منها من يتشوقون إلى المعلم المثالى فى هذا العصر ، ويتطلعون إلى القدوة التى تُحتذى في علمها وسلوكها ، ولعل الكاتب - فى عدد أخر - يفيض فى شرح أبعاد القدوة عند المدرس ، وانعكاسِ ذلك على طلاب العلم .

البحوث

الفقُه في عصر الصحابة (رضي الله عنهم) د .عبد العزيز محمد شرف الدين.
يدل العنوان على أن في التاريخ عصراً للصحابة (رضوان الله عليهم) ، وقد جرى المؤرخون على تقسيم العصر الإسلامي : إما قسماً واحداً يبدأ بالبعثة النبوية وينتهي بأخر خلفاء الدولة الأموية ، وإما قسمين : صدر الإسلام ويشمل عصرَ النبوة الهادية والخلافة الراشدة ، وعصر بنى أمية .

فعلام جعل الكاتب للصحابة عصراً خاصاً بهم ؟

ولكي يتفادي القارىء ما يوحي به العنوان ؛ يمكن جعله : الفقه عند الصحابة ، أو فقه الصحابة ، لاسيما أن بعض الصحابة عاصر جزاً من زمن الدولة الأموية .

- فى صـ ١٢ بعد عبارة « متفق عليه » قال الكاتب : ولفظه ... فَلِمَنْ اللفظُ ؟ للبخارى أم لمسلم ؟ وهل يكفي فى تخريج الحديثين الإشارة إلى غير الصحيحين ، كما هو واضح فى هامش(١) من المراجع ؟ حيث اعتمد الباحث على غيرهما فى إيراد الروايتين ؟

- قسّم الباحثُ عصر الصحابة إلى : عصر الخلفاء الراشدين - عصر صغار الصحابة ، وأرى أن « صغار الصحابه » وصف لايليق بخير قرن عاصر النبيَّ ﴿ﷺ﴾ ، ولو كان معظهم صغار الأعمار ، ولعل الأنسب لهم : عصر بقية الصحابة .

- فى قول الباحث : « وإن كانوا لايستطيعون أن يُفْتُوا فيها غيرَهم» ص ١٥ كيف لايستطيعون أن يفتوا غيرهم ؟ وهم - كما يقول الباحث - يفهمون خطابات الشارع ، ويَعُونها ، ويعملون بها فى خاصة أنفسهم ، والصحابة - كما يقول - فى جملتهم فقهاء !!

نحسب أن الصحابة الذين اتصفوا بالأمية لم يكن لديهم عجز عن الفُتْياَ ، ولكنهم تركوا هذا المجال لمن رأوهم أحقَّ بالفتيامن كبار الصحابة، فقد كان الأميون يرون المقربين إلى النبى (ص) - وخاصة القراء - جديرين بحمل هذه الأمانة .

- وفى الصفحة ذاتها استشهد الباحث بكلام لم يصح عن رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، كما نقل النص عن ابن عبد البر فى هامش (٩) بقائمة المراجع . فلماذا الإتيان بهذا

الكلام : « أصحابى كالنجوم ... » وهناك ماهو أوْلى بالاستشهاد ، نحو : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين ... »

- وفى الصفحة نفسها : « اضطر إلى العلم بفقههم وفضلهم » لماذا التعبير بالفعل اضطر ، وليس فى الأمر إكراه ، لأن مَنْ تأمل ما وصفَ به الصحابةُ من أفعال الرسول ﴿ﷺ﴾ فى العبادات وغيرها ؛ أدرك علمهم ، وأيقن فضلهم ، ولزمه الاعتراف بسبقهم فى اقتناع وطمأنينة ، وليس فى اضطرار .

- صـ ١٧ لما ذا يخصَّصُ عليّ (رضي الله عنه) بعبارة (كرم الله وجهه) وحده من دون الصحابة الكرام ؟ فهل لذلك من تعليل أوإيضاح ؟ !

لقد كان علي يعرف فضل أبى بكر وعمروعثمان والسابقين إلى الإسلام (رضي الله عنهم) .ولسنا بهذا نقلل من شأن ابن عم رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، وزوج ريحانته الحبيبة (رضي الله عنها) ؛ فهم سادتنا ، وليتنا عَفَّرْنا جباهنا بغبار جهاد أبى الحسن ، ولكننا نبحث عن سند شرعى ، أود دليل فقهي يُجوِّزُ لنا استعمالَ هذه الخاصية . فهل إلى ذلك من سبيل ؟!

- صـ ١٨ « وفي الكوفة كان له (أي : ابن مسعود) أصحاب وتلاميذ ينشرون مذهبه » . العبارة - مع أنها منقولة عن بعض المعاصرين ، مما يجعلها من رأى الكاتب - تعنى أن لابن مسعود مذهبا فقهياً كالمذاهب المعروفة .

لعل الكاتب يقصد طريقة ابن مسعود فى استنباط الأحكام ؛ وهي الطريقة التى كان يسلكها جلُّ الصحابة بل كلهم .

- صـ ٢٠ فى تفصيل النقطة (ب)

لم ينسب الباحث الرأى الأول الذي يوجب أن تأتى المطلقة الحامل بالعِدَّتَينْ إلى واحد بعينه من الصحابة (رضي الله عنهم) ، وإنما أكتفى بقوله : فقال بعض أصحاب النبى (ص) ... مع أنه نسب الرأى الثانى . ولو ضمنا - إلى ابن مسعود . وكان له أن ينسب كل رأى ولو إلى واحد كما فعل فى الثانى ، أو أن يترك نسبة الآراء لتعذر المصادر مثلاً ، وهى ليست متعذرة فى هذا المجال .

- صـ ٢٢ فى حديث الباحث عن المثال الثانى من أمثلة اختلاف الصحابة ، قال

مانصه : « الثانى : اختلاف الصحابة بسب السنة» ولعل الأوْلى أن يقال : اختلاف الصحابة بسبب الاختلاف فى فهم السنة » ؛ لكى يطرد مع المثال الأول ، وهو اختلاف الصحابة بسبب الاختلاف فى فهم القرآن . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ؛ ليزول اللبس الذى يمكن أن يقع ، من كون السُّنّة - فى تحديد الكاتب - سبباً فى الاختلاف، وليس هذا مراد الباحث من غير شك ،فمراده - وهو الذى يفهمه كل منصف - أن الإختلاف فى فهم السُّنّة كان من بين أسباب اختلاف الصحابة (رضي الله عنهم) .

- صـ ٢٣ يقول الباحث : « أرجع ابن حزم - رحمه الله - اختلاف الصحابة في السنن لأسباب عَشَرَة : ... » المشهور فى تعدية الفعل إلى المفعول الثاني : أن تكون بإلى وليس باللام ، والفعل نفسه « أرجع » ليس إلا لغة هُذَيْل وحدها ، والفصيح الذى نزل به القرآن هوالثلاثى المتعدى بإلي ،نحو قوله (عز وجل) : « فإن رجَعَكَ الله إلى طائفة منهم » ... الآية. وقوله (سبحانه) : « ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لاقبَلَ لهم بهاَ - الآية . ومع صحة لغة هذيل ، نري القرآن- فى هذا الاستعمال - أوْلى بالاتّباع.

ثم لماذا اقتصرالباحث على ابن حزم وحده فى سرد أسباب اختلاف الصحابة (رضي الله عنهم) ؟ فهناك كثير غيراُ بن حزم - على علو كعبه - تعرّضّ لهذا الأمر، ولعلِ من أبرزهم : الشوكانىَّ ، وابن كثير ، وابن القيم ، وغيرهَم .

- صـ ٢٧ الثالث من الآثار التشريعية التى خلّقها هذا العهد :

« انقسام حزبى ... »

علام بنى الباحث هذا النتيجة التى تجعل الانقسام الحزبى أثراً من آثار فقه الصحابة ؟ لو أنه فى قضية الخلافة مثلاً أعاد الأمر إلى اختلاف الصحابة لاستقامتْ له صحة النتجية ،لأن فهم حقيقة الخلافة عند الصحابة - فى تقديرنا - لم يكن محل اختلاف بينهم ، وإنما نشأ الاختلاف لعوامل سياسية لاعلاقة للصحابة رضى الله عنهم بها. صحيح أن هذا الأنقسام الحزبى كان له - كما يقول الباحث - أثر فى التشريع، ولكنه الأثر الذى نشأ بعيداً عن جوّ الصحابة المنّقَّى من الأهواء ، البعيدِ عن الأغراض.

وتبقى ملاحظة عامة علي البحث كله ؛ وهى : أن الباحث لم يبيِّن موقفَنا - نحن

المعاصرين - من فقه الصحابة ، وكيفيةَ التعامل معه ، أو الأخذِ عنه ، خاصة أن للصحابة منزلةً فى نفوس المسلمين لايدركها إلامَنْ عرف وأيقن أنهم خير القرن ! ولم يتلبَّثْ أمام علاقة فقة الصحابة بالمذاهب الفقهية المعروفة ؛ إذّ إن أبا حنيفة يعد من التابعين ، وقد قيل فيه :

إن الامام أبا حنيفة قد روى   عن سنة من خير صحب محمد

وشائع بين أهل الفقة أن أبا حنيفة من أهل الرأى ، مع أنه له مسنداً برواية الإمام الحِصْكفي ّ ؛ فما علاقة هذه المذاهب المعروفة بفقه الصحابة ، وبعضها قريب العهد بالجيل الفريد (رضي الله عنهم) ؟

لقد كان من الآثار التى خلّقها عهد الصحابة : بروزُ المذاهب المعروفة ، وهل أحدثك عن مالك إمام دار الهجرة وكتابه الموطأ الذى يمتلىء بآراء الصحابة ؟

- أما فيما يتصل بمراجع البحث ، فلنا عليها ما يأتى :

* لم ترد بيانات المراجع مسوفاةً بصورة كاملة إلا فى كتاب : نظرة عامة في تاريخ الفقه ، للدكتور حسن عبد القادر ،وهى بيانات تحتاج أيضاً إلى : مكان الطبع (القاهرة مثلا) والمطبعة (السلفية مثلا) .

* فى الاعتماد على المعاجم : يكفى الإشارة إلى المادة ، كما فعل الباحث فى هامش ٢٧ ، فقد كان يمكنه أن يقول : انظر القاموس المحيط (كل) ، لأن مواد اللغة فى المعاجم ، لاتتغير - غالباً - ولاتختلف باختلاف الطبعات ، إلا إذا نُصَّ فى إحدى هذه الطبعات على الاختصار أو الزيادة ، وهذا مالايكاد يحدث فيما يتصل بالمعاجم ، وإن تغيرتْ طريقة الكشف فيها .

ليس ثمةَ ما يدعو إلى جعل الهامش ١٧ قسمين : (أ) ، و (ب) .

وعموماً : يتسم البحث بحسن العرض ، وبروز شخصية صاحبه ، وأمانته العلمية ، كما يتضح فيه الحرص على الاهتمام بتراث هذه الأمة الكريمة ، وإبراز بعض جوانب هذا التراث في مَعْرِض يُغْرى أبناء هذا العصرالحديث بالإقبال عليه ، وهذا فى حد ذاته تجديد فى البحث العلمى .

خطر التبعية في مجال النقد د . مصطفى عبد الواحد

- صـ ٣٢ س٩ « كفة » ضبطت فاؤها بلا تشديد ، والصواب أن تشدّد .

- صـ ٣٢ س ٤ والإزْراء على تراثنا ... لعل الصواب والزِّراية على تراثنا ، لأن زَرى الثلاثيَّ يتعدى بعلى ؛ يقال : زرى عليه فعله : عابه ، يَزْرِي ، وأمّا أزْرى فيتعدى بالباء ، يقال : أزري به / أي : قَصَّرَ ، والإزراء التهاونُ بالشيء ، وتحقيرُه وتهوينُه . قال ابن سِيدَهْ : وأرزى عليه قليلة .

فلاداعي للُغة القليلة ، وللكاتب أن يختار : الزراية على تراثنا بمعنى عيبه ، أو الإزراء بتراثنا بمعنى تحقيره ،والتهاون به ،وقد فعل هو الصواب حين قال والإزراء بتراثنا صـ٦١ .

- تنبع التبعيةُ - لدى المؤلف - من تصور شخصي لاغبار عليه ، وإن كان قد حصرها في تقليد مذاهب النقد الغربية ! غير أن التَّبعيَّة أو : الاتِّباعية .. في النقد وغيره قد تكون محمودة ؛ بإحياء آراء السابقين من العرب ، وإبرازِ أهميتها ، وكيفية الإفادة منها في مجالها .

وواضح أن الكاتب يتخذ موقفاً معيناً من متابعة بعض المعاصرين العرب بيننا مذاهبَ أوربيةَ في النقد معينةً ، بحيث تُلْغي شخصيةُ النابع ، وتذوب في شخصية المتبوع ؛ فتطبيق مذاهب الغَرْب على الأدب لاتراه تبعية ، بل هو « تغريب » أو استغراب نقدي .

- صـ٣٣ « وهل فيه ... أم هو .... » لايحبِّذُ المحافظون علي سلامة اللغة مجيء أم مع هل ؛ لأن أم تجيء مع همزة الاستفهام ، وهو ما يتطلبه سياق الاستفهام كما طرحه الكاتب ، أما هل فتجيء معها أوْ .

- صـ ٣٧ وقع الكسر العروضي المؤدي إلى اختلال نغْمة الشعر في بيتي أبي نُواسٍ ؛ فالقصيدة التي منها البيتان من مجزوء الرَّمَل ؛ وتفاعيلُه :

فاعِلاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن

وقد جاء الكسر من وضع همزة القطع فوق ألف أصبِحينا ، وحذفُ الهمزة بجبر

الكسر ، فيتّسقُ وزنُ البيت ، لأن الفعل ثلاثى مزيد بالهمزة، فهو ثلاثى مجرد ، ومنه قول عمرو بن كلثوم فى أول بيت من معلقته الجهيرة :

ألا هُبىِّ بصَحْنِك فاصْبَحِينا ولاتُبقى خمورَ الأنْدرينا

واصْبَحينا : أسْعِّينا صَبُوحاً ، وهو شراب الغداة ، والصَّبْحُ: سقْيُك أخاك صَبُوحاً من لبن أو غيره ... وصَحَه بَصبْحَهُ صَبْحاً وصَبحه : سقاه صَبُوحاً .

ومنه هذا قول طَرْفة بن العبد : متى تأتني أصْبْحْكَ كَأسًا رَوِيَّة » ...

وأما الكسر فى البيت الثانى ، فقد وقع بحذف همزة القطع التى يجب أن توضع فوق الألف من الفعل « أجرى » ، ليستقيم وزن البيت .

وبعد البيتين مباشرة : « في إثنين وعشرين صفحة » وبغض النظر عن همزة الوصل التى قطعَتْ - ولعل قطعها سهو - يجب مطابقة العدد للمعدود : اثنتين ... »؛ لأن (١) ، (٢) يطابقان المعدود فى الاستعمالات كلها : إفراراً وتركيا وعطفاً !

- صـ ٤٠ لم يعقِّبْ الكاتبُ على الكلام الذى نقله عن أدونيس فى زعمه أن حركة الانفصال بين الشاعر والتراث لم تبلغ أوْجَها إلا عند أبى نُواسٍ وأبى تَمّام .

وهو زعم متهافت ، فإذا سلمْنا أن أبا نواس انفصل عن تراثه ، فلَم لمْ يتمردْ علي هيكل القصيدة الموزون ، ولِمَ لمَ يحطِّمْه ويأت بأوزان نقيم هيكلاً جديداً ، أو قالبا حديثاً تصاغ فيه التجارب ؟ على أن أبا نواس نفسه اختتم حياته بشعر ينْضحُ صدقَ المتاب ، ويعكس جَدِّيَة الضراعة ، وحُسْنَ الإنابة إلى الله (سبحانه) ؟

وأما أبو تمام فقد حَرَصَ فى شعره على إبراز المعانى الإسلامية بافننان خلاّب يدل على وفرة محصوله ، وبراعته الغنّية فى أنٍ واحدٍ معاً ، وحْسبُه(عمودية ُ) دليلاً على ما ندَّعى .

وإلا ، فليس الشاعران دليلاً قاطعاً على الانفصال الذي يَزعُمُه حَدَاثيو العصر الحديث ؛ لأن فى العصر العباسى تياراتٍ شعريةً تدفقت فى توجهاتها الفكرية من منطلقات إسلامية ، أو من التراث العربى بعموم ؛ فليس من الإنصاف تعميم حكم أدبى على عصركامل بسبب شاعر أو مجموعة من الشعراء !

- صـ ٤٥ : نحسب أن تعليق الكاتب على كلام أدونيس في استشهاده بالآية ١٨٧ من سورة البقرة ، غيرُ كافٍ ؛ لأن أدوينس وأحزابه - لدى من يفهمون دلالات الألفاظ ، وعلاقة هذه الدلالة بالسياق . يَهْرِفون بما لايعرفون ، وهذا هو الخطر الأكبر الذى ينبغى أن يُخشى من هؤلاء ، فلا يضيرنا ألا يفهم الآخرون ،ولكننا نرفض فرض عدم فهمهم ، وإشاعتَه بحيث يغدو من المسَلّمات أو الحقائق !

فماذا يعنى أدونيس بالمنظور العادى غير المنطقى الذى يطالب بالنطر إلى الأية من خلاله ؟ وما الذى يريده يكون الآية تغيِّرُ الوظيفة العادية المنطقية للّغة ؛ أيْ تُغَيِّرُ طبيعةَ اللغة ؟ وما الهدف من وراء هذا الخبْط والخلْط ؟

نحن نعتقد أن اللغة والمنطق وجهان لعملة واحدة ؛ أحدهما : مُغمرفى القلب، والآخر : مُظهَر علَى اللسان ؛ فإذا قلنا : إن اللغة هى المنطق لم نجاوز حقيقة الأمور.

وأدونيس وأقرانُه - إن كان له أقران - لايطبقون نظرية معينة ، ونحن نتحداهم فكرياً وعملياً - لاغروراً ، بل دعوة إلى إعمال العقل - أن يجُيدوا تطبيق نظرية واحدة من نظريات النقد الغربي ، وأن يصلوا إلى نتيجة مُقْنعة ، ساعتَها سنقول لهم : نسلّم لكم بسلامة النظرية ، ونؤمن معكم بصحة نتائجها .

والأمر نفسه يمكن الوقوف به مع كلام أستاذ النقد البِنْيوىّ عبدالرحمن بوعلى ص٤٨ وما بعدها ، فقد أحسن الكاتب في التعليق على كلام هذا البنيويّ العربى. ولو أن الأمر وقف بالبنيويِّين عند حد ضجيجهم الزاعق ، أو محاولتهم تلمس دعاوَى يستندون عليها من التراث العربى بجعلهم ناقداً كعبد القاهر مثلاً متوائماً مع مقولات دى سوسير ، وتشومسكى وجاكوبسنوغيرهم ... لو أن الأمر وقف عند هذا الحد لهان الخَطْب، ولكنّ الجرأة وصلت ببعضهم إلى حد أن عَدُّو ا عبدَ القاهر نفسه ناقداً بنيويّاً - إىْ والله بنيوياً - سبق بِنْيَويِّي القرن العشرين بمئات السنين !! ومنْ أسفٍ أن أساتذة أجلاء مَمن نسعدُ بالتلمذة لهم ، اغتبط لمثل هذه «الهوجة» فركب الموجة ، وراح يكتب عن عبد القاهر والبنيويّة !!

- صـ ٥٢ س ٧ من أسفل : « أما الحمولة الدينية للفظ ثلاث ..» لعل الكاتب بقصد تحميل لفظ ثلاث المعنى الدينىّ ، أوحَمْلَ لفظِ ثلاث على المعنى الديني ، أوْما

إلى ذلك ؛ فالحَمولة - بفتح الحاء - كل ما احتمل عليه الحيُّ من بعير أو حمار أو غير ذلك / سواء أكانت عليها الأثقال أم لم تكن، والحُمولة - بضم الحاء - : الأحمال التى عليها الأثقال خاصة ، أو الأحمالُ بعينها ؛ أى : الأحمال التى تُحمل على الإبل .

فكان حَرِيًا بالكاتب أن يقول : « أما حمل لفظ ثلاث على المعنى الدينى - مثلا - فما أراها .... الخ »

وفى الصحفة نفسها س ٨ . ٩ يجب حذف « كالكناية الناصعة » ليستقيم الكلام، ولعل هذا خطأ مطبعي .

- صـ ٥٣ س٦ المنصاعين ، صوابها - كما نرى -: المنقادين ، أو المتابعين ، لأن الانصياع معناه التفرقُ ؛ من قولهم : صاع الشيءَ يصوعه صَوعاً فانصاع ، وصوّعه : فرّقة ، وانصاع القومُ : ذهبوا سِراعاً ، وآنصاع القومُ : ذهبوا سِراعا ، وانصاع : انفتل راجعاً ومرّ مسرعاً، والمُنصاع : المفرد والناكص .

- وفى الصفحة نفسها خطأ نحوى فى « سنة اثنين » س٩ و « عام ثلاث » س ١١ والصواب : عام اثنين ، أو سنة اثنتين ، وعام ثلاثة أو سنة ثلاث .

- صـ ٥٥ كون الأعجمى عند متبعى نقاد الغرب خيراً من العربى ، لايضايق من يعتزّ بتراث أمته ، ولعل بعض الشعراء - فى العصر الحديث- الذين يتصورهم الحَدَاثيون ممثلين للرمزية ، أو الواقعية ، ويهللون لشعرهم كأنه حجة لهم على المتخلفين من أمثالنا - نحن التراثيين - أقول : لعل بعض هؤلاء الشعراء فطنوا فطنة مبكرة فى حياتهم الفنية إلى ثراء النقد العربى والشعر العربى مثل تناوب الأعضاء ، ومن هؤلاء محمود حسن إسماعيل الذى كتب فى أول ديوان له يقول عن الشاعر بعموم :

« وهب قوة عليا تمكنهُ من تصوير شعوره إزاء الطبيعة والترجمة عما يخالج نفسه من أثر هذا الاندماج فيها ، فهو يحس بكل ما تتحمله هذه الكلمة من معان ، حتى لقد تمتزج هذه الإحساسات فى نفسه ، فيترجم عما يراه بعينه بسمعه ، وعما يسمعه بأذنه بنظره ، وهذا ما يُعَبرَّ عنه بمزج الأحاسيس . ويظنه بعضهم لونا جديداً ، لاعهد للشعر العربى بمثله ، وأنه وليد الآداب الأجنبية أو الابتداع الجديد فى الشعر ، ولكن المطّلعَ على أسرار الشعر العربى يرى سبق العرب به ، ولابن حَمْد يس الصقلى مثل فى ذلك :

حين يصف الخمر :

حمراء تشربُ بالأنوف سُلافَها لطفا ، وبالأسماع والأحداق !

فأنت ترى أن الشاعر فد اندمج بشعوره اندماجاً كلياً فيما وقع عليه بصره ، وأحس إحساساً عاما بعيد الأثر ، أعمقَ وأدقَّ من إحساس النفس العاديّة » (راجع : كلمة الختام التى جعلها الشاعر فى أخر أول دواوينه ؛ وهو أغاني الكوخ صـ ١٣٥ وما بعدها ، القاهر ة ، يناير ١٩٣٥ م) .

ومن عَجَب أن الرجل - وقد رحل إلى ربه - كان يفرح لشعره ، بعضُ النقاد ، ويتصور أنه يدخل الفرحة على الشاعر حين ينسبه إلى الرمزية ، أو الرومانسية ، أوالواقعية ، أو السِّرْيالية كما فعل بعض متحذلقى النقد ، ولكن محمود حسن إسماعيل العربىّ المسلم يقول عن انتمائه : « أنا أنتمى إلى اللامذهب، أو إلى هذا الكون الواسع » !

- صـ ٥٨ س ٥ الضبط بالشكل فى « المقلدون » يناقص التنويه الواقع بين الشرطتين . وس ١١ : « كثيراً ما يرددون الاتباعيون ...» الصواب إفراد الفعل وجعله " يردد ، ولاداعى للغة : ظلمونى الأحبة ، أو أكلونى البراغيث .


دار
البلاد
للطباعة والنشر
جـــــدة